

- ۳۹۵۹ -

- ۳ -

بورتشارد راهب دیر جبل صهیون

obeykandi.com

استهلال:

كان بورتشارد راهب دير جبل صهيون ألمانيا، إما من أهالي مدينة ستراسبورغ أو مدينة مجديبورغ، وقد عاش في القرن الثالث عشر، وصار راهباً من رهبان طائفة الدومينيكان وذهب إلى الشرق في سنة ١٢٣٢م، وقد زار مصر، وسورية، وما عرف باسم أرمينيا، التي كانت تعرف قديماً باسم مملكة كليشيا، ويقال بأنه أمضى عشر سنوات في دير جبل صهيون في القدس، ولم يعد إلى أوروبا حتى تقدمت به السن كثيراً، هذا وتاريخ وفاته غير معروف.

ومن لهجة كتابته، يمكن أن ننظر إلى العصر الذي عاش فيه على أنه عصر تسامح، وقادت صحة أوصافه في كثير من الأحيان م.دي.أنفيل **Annville**، للاعتقاد عليه كدليل، وقد أعلن ج.س.م لورانت — الذي اعتمدت على طبعته في هذه الترجمة — أنه أعظم الحجاج في جميع العصور الوسطى وأشهرهم، ومع هذا يلاحظ أن شهرته التي دفعت إلى تحقيق كتابه أكثر من عشرين مرة، أن ما من طبعة من الطبقات المتقدمة أعطتنا نصاً كاملاً، وأنه لم يكن هناك وفاق حول اسمه الذي ورد بأشكال متنوعة منها: بوركاردوس **Borcardus**، وبروكاردوس **Brocardus**، وبرغادوس **Berghadus**. وذهب لورانت إلى القول بأن بورتشارد نفسه قد أخرج الكتاب مرتين، ففي المرة الأولى قدمه كنشرة خاصة أخذت شكل رسالة مرفقة بخريطة، وقاد نجاح هذه النشرة إلى إخراج نسخة مصححة نشرت على شكل كتاب، وظهر منذ ذلك الحين تعارض عظيم في النص، وذلك عندما نقارن طبعة منه بأخرى، فعلى سبيل المثال نقل العقيد كوندر الكلمات التالية من ص ١٢ من هذه السلسلة حول مدينة القدس:

"Relictis Tamen Prioris concavitatis Vestigiis"

مظهراً أن وادي [السيلا] تيروبوان Tyropoeon لم يكن مليئاً مثلما هو الآن، ولم ترد هذه الكلمات في نص لورانت، غير أننا نقرأ في الفصل الثامن نصاً مشابهاً جاء فيه: «في هذه الأيام جميع مجرى وادي السيلا مليء تماماً، ومع هذا فإن آثاره، يمكن تتبعها وفق هذه الطريقة».

ونقل لورانت نصين عن طبعة هنريكوس كانيسوس، الذي حقق الطبعة المبكرة من كتاب مصنفنا هذا، فقد أشار بورتشارد في هذين النصين بشكل اعتيادي إلى أماكن في مجديبورغ ومن حولها، وذلك كمقياس للمسافات، ومن ذلك اعتقد لورانت أننا نستطيع من دون خطر أن نفترض أنه كان ألمانياً، إن لم يكن من أهالي تلك المدينة.

وأكثر أهمية تقدير تاريخ كتابته وزيارته لفلسطين، فالحوادث التي أتى على ذكرها تبرهن أنه كتب بعد سنوات: ١٢٦٠ و ١٢٦٣ و ١٢٦٨، و ١٢٧١، وقبل سنتي ١٢٩١ و ١٢٨٥، وعلى هذا فإن تاريخ سنة ١٢٨٣ يبدو صحيحاً، مع أنه لم يذكره بنفسه، وذكر بعض الكتاب أنه أمضى عشر سنوات في الأرض المقدسة، أي من سنة ١٢٧٥ حتى ١٢٨٥ (انظر م. لي كلارك — التاريخ الأدبي لفرنسا: ٢١ / ١٨٢)، والمؤكد هو أنه أمضى عامين هناك، ونستخلص هذا مما قاله في الفصل الرابع، فقد كان هناك في أيام حكم الملك المنصور قلاوون (١٢٧٩ — ١٢٩٠)، سلطان مصر وخليفة بيبرس، وقد كتب قبل ثماني سنوات من انتهاء الحروب الصليبية، وكان ذلك في أيام هنري ملك قبرص والقدس، وفي أثناء هدنة العشر سنوات، التي أبرمها قلاوون في سنة ١٢٨٢ م، مع الداوية والاسبتارية، ومن المفترض أن لقب De monte Sion الذي حمّله، قد جاء من إقامته الطويلة في الدير هناك، لكن من الواضح أننا لا نمتلك برهان قوي يبرهن هذا ويؤيده.

وكان بورتشارد مخلصاً في تحرره من التعصب، مع أنه كما يبدو، كان

على المستوى الشخصي تقيماً، وكانت رعايته ومساعدته للطوائف الأخرى مدهشة، ويبدو أن قراءاته كانت ضخمة، وقد أظهر كثيراً من الذكاء، في تعلمه ما أمكنه تعلمه أثناء رحلاته، وكذلك في استيعاب المعلومات التي تلقاها، وقد عاش فيما بين هراطقة وكفار، وبين نساطرة وأرمن وسريان، وكأنهم إخوان له، وقد أظهر أكثر من أي كاتب معاصر له مزيحاً غريباً من الشجاعة والتواضع، والإيمان، وحب المعرفة، ويبدو أن هذا كان من سمات الصليبيين في القرن الثالث عشر، وهي حقبة البطولة في العصور الوسطى، ولقد كان قادراً على زيارة بلدات هي الآن مدمرة، ومناطق كانت مزدهرة هي الآن مشعثة، ولم يكن بالطبع خلواً من السداجة حيث قام بمزج الحكايات الخارقة، وردد أصداء الملاحم، فلقد كان حسبما وصفه م.ف. لي كلارك بقوله:

“il Faut reconnaitre chez ce religieux un esprit fort eleve, qui, au moment ou les croisades Finissent, raconte avec unenaivete admirable ce quil a vu ou cru voir. No us devonsa sa, curiosite attentive des abservations importantes de geographie et d,histoire naturelle” (التاريخ الأدبي لفرنسا: ٢١ / ١٨٢).

وأتى فابري (١ / ٤ / ١٧) على ذكر بورتشارد بالاسم، ونقل مارينو سانوتو صفحات كثيرة من كتابه، قام بانتحاله حجاج آخرون، وفي هذا كله اعتراف مخلص بما قدمه، واعتماداً على بورتشارد قام الجغرافيون باستقاء المعلومات حول التقسيم الجغرافي لفلسطين، وسورية، والعربية، وعن مكانة دمشق الأبدية في سورية، وكذلك الكلام المضطرب حول الايطورية والطرخونية، الذي رددوه بصواب أعلى أو أدنى، ولقد كتب بورتشارد بلاتينية وسيطة جديدة، ونقل عن هوراس وكذلك عن جيروم ويوسيوس، ولسوء الحظ أنه تولى وصف الأرض المقدسة

بوساطة خطوط تقسيم كثيرة، انطلاقاً من مدينة عكا، وهذه خطة لم تكن مجدية تماماً في التوضيح والتحديد، لكنها نقلت مع أشياء أخرى كثيرة من قبل مارينو سانوتو.

وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة

تمهيد:

أخبرنا القديس جيروم أننا نقرأ في تواريخ قديمة حول رجال زاروا بلداناً، وعبروا بحاراً، إلى حد أننا يمكن أن نتصور معهم ونرى الأشياء التي قرأنا عنها في الكتب ورأوها بأنفسهم، وهكذا زار أفلاطون الكهان المتنبيين في ممفيس، وذهب أبولونيوس إلى مصر، ودخل إلى بلاد فارس، وعبر إلى القوقاز، وبلاد الألبان، والسكيزيين، والمسغيتيين Mes-sagetae، والهناد، والبراهمانيين، وذلك حتى يمكنه رؤية ياركاس larchas، وذهب أخيراً إلى مصر، حتى يمكنه رؤية مائدة الشمس الشهيرة في الصحراء الرملية، فما وجه العجب على هذا، إذا ما تشوق المسيحيون لرؤية الأرض التي تحدثنا عنها جميع كنائس المسيح، ولزيارتها؟ فقد بجّل الناس القدماء قدس الأقداس، لأنه كان هناك تابوت العهد، والخيمة الملائكية مع كرسي الرحمة، والمن، وعصا هرون التي أزهرت، وهذا كله يشكل نماذج عن الأشياء التي ستأتي، وأوليس ضريح المسيح يستحق العبادة منا أكثر من أي شيء آخر، لأن أي إنسان كلما دخل إلى هناك، ومهما كان عدد المرات، سوف يتصور بعقله وبصيرته المخلص ممدداً هناك وملفوفاً بأقمشة كتانية؟ وإذا ما تقدم أكثر قليلاً، سوف يرى الصخرة وقد دحرجت وأزيحت، والملاك جالس عليها وهو يري النساء المنديل وأقمشة القبر، وأي مسيحي، بعد رؤيته لهذه الأشياء، لن يبادر مسرعاً بالذهاب إلى بيت لحم، ليرى الطفل الوليد وهو يبكي في المعلق، فقد جاءت مريم لتأوي إلى النزل الذي كان موجوداً تحت صخرة مجوفة، من الممكن رؤيتها في هذا اليوم.

وكان الملائكة يغنون: المجد للرب، والسلام للناس، وكان ذلك

بمحضور الرعاة، وأكثر عجباً من هذا كله، رؤية الحكماء الثلاثة بأبهتهم يركعون أمام المعلق، من دون سقف فوق رؤوسهم، إلا الصخرة الممتدة نحو الأمام؟، ودعه يعود من هناك إلى القدس، عله يرى يسوعاً ويسمعه وهو يعظ في الهيكل، ويعلم حواريه على جبل الزيتون، ويتعشى على جبل صهيون، ويغسل أقدام حواريه، ويعطيهم جسده ودمه، ويصلي في جيساني، ويتعرق دماً، ويقبل الذي خانته، ومن ثم يعتقل ويجر بقوة إلى السجن ويسخر منه، ويصق عليه، ويحكم عليه، ويحمل صليبه، ويغرق تحت وطأة وزن الصليب أمام باب المدينة الذي من الممكن رؤيته في هذا اليوم، ثم يساعده سمعان القرني، وبعد ذلك قيامه بالاحتفال بأسرار قداس آلامه فوق أكرا، وما برحت ذكرى كل واحدة من هذه الأحداث، وكل واحد من هذه الأماكن كاملة وتامة، كما كانت عندما حدثت هذه الأشياء ها هنا، وفي الحقيقة هناك في المدينة أماكن كثيرة تقديست بأحداث آلام ربنا، إلى حد أن يوماً واحداً لن يكون بأي حال من الأحوال كافياً لزيارتها جميعاً بشكل نافع، وبالإضافة إلى هذا كله، هناك أشياء أخرى تثير الناس في تلك الأماكن وتدفعهم إلى درجة عالية من الانفعال العاطفي، ومن هو الذي يمكنه أن يذكر كم هو عدد الرهبان والراهبات من جورجيا، ومن أرمينيا الصغرى والعظمى، ومن بلاد الكلدان، وسورية، وميديا، وفارس، والهند، وأثيوبيا، والنوبة، وكذلك الأنباط، والموارنة واليعاقبة، والنساطرة، والاغريق، والسريان، ومن الطوائف الأخرى، الذين يتجولون في هذه الأيام في تلك البلاد على شكل جماعات، كل منها مكون من مائة أو مائتين، أو أكثر أو أقل، وهم يزورون كل مكان مقدس، ويقبلون بعاطفة جيشة القلعة، ويتعبدون البقاع التي سمعوا بأن يسوعاً الجميل جلس عليها، أو وقف، أو عمل أي عمل؟ تراهم يضرّبون صدورهم، وهم يبكون أو يتنهدون، ويغنون بالدور، ويعبرون بمظاهرهم الجسدية عن مشاعرهم الدينية التي يمتلكونها بدون أدنى

شك، وعمق هذه المشاعر كان يستدر عطف الكثيرين حتى أن المسلمين كانوا يكون لذلك، فلقد رأيت أيها المولى الرب، إبراهيم، يسرع — كما حدثنا المؤرخون القدماء — بمغادرة بلاده، وترك أسرته، وبيت أبيه، ليقدم مسرعاً إلى هذه البلاد، فينصب خيمته فيما بين بيت إيل، وبين عاي، ويقيم بعض الوقت في جرار Gerar ، وبئر السبع، وحبرون، وإنني أرى حزقيال يغادر مياه بابل، ويُحمل بشعر رأسه فيما بين السماء والأرض، وهو يشق طريقه إلى القدس، وما الذي يمكنني قوله عن العذراء الرائعة، التي، بعد الاعلان الذي عمله الملاك لها، ووعدها، قد عرفت بأن رحمها قد عمل بيتاً للرب، فلم تكن راضية بسهولة الجليل الواسعة والجميلة، بل بادرت مسرعة للصعود إلى المنطقة المرتفعة في اليهودية، وذلك لرغبتها في أن تكون أقرب إلى الأماكن المقدسة؟ وما الذي يمكنني قوله عن البطريك يعقوب، ويوسف وأخوانه، الذين، لأنهم لم يستطيعوا السكنى في تلك الأرض أثناء حياتهم، اختاروا أن يدفنوا فيها بعد مماتهم؟.

وما الذي أحتاحه للقول أكثر؟ من الممكن أن نتنهد ونزرع تجاه انعدام الحماسة لدى المسيحيين في أيامنا، الذين لديهم أمثلة كثيرة مضرورية أمام أعينهم، ويترددون في العمل على انتزاع البلاد التي قدسها يسوع بدمه، من أيدي الأعداء، مع أنهم يغنون يوماً بحمده في الكنائس خلال العالم كله: لأنه لا يوجد يوم أو ليلة على مدار السنة لا يغني فيها كل مسيحي تقي، أو ينشد، أو يتلو، أو يعظ، أو يتفكر، أو يقرأ حول ما جرى أو كتب في هذه البلاد، وفي مدنها وأماكنها المقدسة؟.

وعندما رأيت أن بعض الناس قد تملكتم الرغبة في أن يتصوروا هذه الأشياء بعقولهم، وهي الأشياء التي لم يكونوا قادرين على رؤيتها بأعينهم، ورغبة مني في تلبية رغباتهم، بقدر ما أمتلك من طاقة، فكرت بقدر ما أستطيع، في أن أكتب بكل عناية وصف ما أشاهده، وأن أصف

بدقة متناهية تلك البلاد، التي مررت ماشياً عليها مراراً، ذلك أنني أريد أن يعرف القارئ أنني لم أضمن أوصافي إلا ما رأيته بأب عيني، عندما كنت في المكان الموصوف نفسه، أو إذا لم أستطع الوصول إليه، كنت أراه من فوق أحد الجبال المجاورة، أو من مكان موائم آخر، ولقد دونت بدقة الأجوبة التي قدمت إلي من قبل السريان أو المسلمين، أو من قبل قوم آخرين من سكان البلاد، وذلك بعدما سألتهم بدقة متناهية.

وفي الحقيقة، لقد قلت: إنني إما مشيت على قدمي وطفيت على البلاد كلها من دان إلى بئر السبع ومن البحر الميت إلى البحر المتوسط، فتلك هي حدودها، أو أنني تقصيت فبحثت بعناية حول الأماكن التي لم أستطع الوصول إليها.

ولدى تفكيري وتقديري كيف يمكنني القيام بوصف هذه البلاد بشكل نافع ومفيد، ولكي يتمكن عقل قارئتي بسهولة من فهم ما سأخبره عنه، رأيت اختيار نقطة مركزية ومن ثم إعداد البلاد كلها وترتيبها من حولها، وفق تنظيم صحيح، ولقد وقع اختياري على مدينة عكا لتكون هي المركز، لأنها معروفة أكثر من أي مكان آخر، ومع هذا فإن هذه المدينة ليست واقعة في وسط البلاد، بل هي قائمة على شاطئ البحر في الجزء الغربي من حدودها، وقد مددت من هناك أربعة خطوط، كل واحد منها متجه إلى إحدى اتجاهات العالم الأربعة، ولقد قسمت كل ربع إلى ثلاثة أجزاء، حتى تتوافق هذه الأجزاء الاثني عشر مع الرياح السواوية الاثني عشر، ووضعت في كل قسم من هذه الأقسام المدن والأماكن التي ورد ذكرها في الكتابات المقدسة، حتى يمكن بيسر وسهولة إيجاد موضع كل مكان، وجزء العالم الموجود فيه.

هنا بداية القسم الأول من البلاد المقدسة

١ — عليكم أن تعرفوا في البداية أن ما ندعوه باسم الأرض

المقدسة، هو ما وقع حصّة لأسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وقد عرف أول الأقسام باسم مملكة يهوذا، وكان حصّة سبطي يهوذا وبنيامين، وعرف القسم الآخر باسم مملكة السامرة، وهو الذي يعرف في هذه الأيام بتبعيته لمدينة سبسطية، التي كانت عاصمة ديار الأسباط العشرة المتبقية، وهي التي عرفت باسم إسرائيل، وقد أطلق على هاتين المملكتين مع جميع بلاد فلسطين، اسم فلسطين، وكانت فلسطين إحدى مقاطعات سورية، وذلك مثلما سكسوني أو فرانكونيا، مقاطعتين من بلاد ألمانيا، ومثلما لومبارديا وتوسكانيا مقاطعتين في إيطاليا.

ويمكن فهم هذا بقدر أكبر، إذا عرفنا بوجود عدد كبير اسمه سورية، وكل منها حمل اسماً مختلفاً، ومع هذا فإن مجمل البلاد الواقعة فيما بين نهر دجلة ومصر تدعى بشكل عام سورية، والجزء الأول من هذه البلاد هو الواقع ما بين نهري الفرات والدجلة، وهو الممتد طولياً من جبل طوروس حتى البحر الأحمر، ويدعى هذا الجزء باسم سورية الجزرية، لأنها تقوم في وسط المياه، وتحتوي على كثير من الشعوب، منهم مثلاً: الفرثيين والمليديين، ويحدها من الجنوب بلاد الكلدان التي توجد فيها مدينة بابل، ومرة أخرى إن حدودها من الجنوب العربية، التي تمتد حتى البحر الأحمر، وهو الذي يدعى في هذه الأجزاء باسم الخليج العربي، هذا وإن الجزء الأول من هذا القسم الجزري كله، هو الجزء الذي يمتد نحو الشمال، وهو الذي اسمه بشكل خاص الجزيرة السورية، وفي هذا الشطر تقوم مدينة الرها، التي كانت تعرف في القديم باسم راسيس Races والآن باسم راسك Rasc فهذه هي سورية الأولى.

وسورية الثانية هي سورية المجوفة، التي تبدأ عند نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس الذي يجري عابراً قلعة المرقب، ويصب في البحر المتوسط عند مدينة بانياس، التي هي مقر أسقف، وتبعد فرسخاً واحداً

عن القلعة المتقدمة الذكر، وفي مقاطعة سورية المجوفة هذه تقوم مدينة أنطاكية مع ملحقاتها، مثل اللاذقية وأفاميا وسواهما كثير.

وسورية الثالثة هي سورية فينيقية، التي تبدأ في الشمال عند النهر المتقدم الذكر، أي نهر بانياس، وتمتد جنوباً حتى بترانثيسا Incisa ، أو القفار عند سفوح جبل الكرمل، ويدعى هذا المكان في هذا اليوم باسم قلعة الحجاج (عثليت) وهي من أملاك فرسان الداوية، وفي سورية الفينيقية هذه كثيراً من المدن، من ذلك مثلاً: المرقب، وطرطوس، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا، وكفرناحوم، وقد عرفت هذه المنطقة باسم سورية الفينيقية صدوراً عن اسم ابنة أغيور التي كانت أختاً لقدموس، فهو الذي بنى صور، وجعلها المدينة الرئيسية في هذه البلاد، وأطلق اسمه على البلاد، فعرفت به.

وسورية الرابعة هي سورية دمشق، حيث مدينة دمشق هي العاصمة هناك، وسورية هذه متصلة بسورية الثالثة، أي سورية فينيقية، وذلك من الجهة الشرقية هناك، وتدعى سورية الرابعة هذه أيضاً باسم سورية لبنان، لأن جبل لبنان المشهور موجود فيها.

والتالي لسورية الرابعة هذه، أي سورية فينيقية (كذا) فلسطين، التي يتوجب دعوتها باسم فلسطين Philistiim ، بسبب وجـود فلسطينيات ثلاثة، وهؤلاء الثلاثة جميعاً أجزاء من سورية الكبرى، وهي كمايلي: فلسطين الأولى، وهي المقاطعة التي عاصمتها مدينة القدس، وذلك مع جميع المنطقة التالية الموجودة هناك حتى البحر الميت، لابل حتى القفار وإلى قادش بارينا(القفار)، وعاصمة فلسطين الثانية هي قيسارية فلسطين، التي تعرف أيضاً باسم قيسارية القائمة على شاطئ البحر، وذلك مع جميع بلاد فلسطين شروعاً من بترانثيسا، أو قلعة الحجاج(عثليت)، وذلك امتداداً نحو الجنوب حتى بيسان، وفلسطين الرابعة هي تلك التي عاصمتها بيسان، وذلك على مقربة من نهر

الأردن، عند سفح جبل جلبوع، وكانت هذه المدينة تعرف فيما مضى باسم سكيذوبولس، والصحيح هو دعوة فلسطين هذه باسم الجليل، أو مرج ابن عامر الكبير.

وهناك مثل هذا ثلاث عربيات، هي بالطريقة نفسها أجزاء من سورية الكبرى، والعربية الأولى هي التي عاصمتها بوستروم، التي تعرف الآن باسم بُزريث Buzereth ، وفي القديم باسم بصرى، ويحد هذه المقاطعة من جهة الغرب الطرخونية والإيطورية (الجيدور)، كما يحدّها من الشمال دمشق، ولهذا السبب عرفت سورية دمشق باسم «العربية»، وهذا يعلل لماذا أطلق على أرتاس Arethas اسم ملك العربية، في حين كان هو في الحقيقة ملك دمشق، والعربية الثانية هي المنطقة التي عاصمتها هي البتراء، التي كانت تعرف بالقديم باسم ربّاث Rabbath على جدول أرنون Arnon، وكانت هذه العربية هي بلاد أبناء عمون، ومهما يكن من أمر فإن مدينة عار Ar كانت في بلاد مآب، وهي تحتوي على مملكة سيحون ملك حشبون، ومملكة عوج ملك بيسان وجبل جلعاد، وهي تحد العربية الأولى من جهة الجنوب، والعربية الثالثة هي التي عاصمتها الشوبك، والتي تعرف أيضاً باسم الكرك، وهي التي عرفت فيما مضى باسم القفار، وهي قائمة على مقربة من البحر الميت، وتحتوي هذه العربية على بلاد مآب، التي ينبغي أن تدعى باسم سورية سوبال، وتحتوي أيضاً على جميع أدوم التي هي جبل سعير، وعلى جميع المنطقة القائمة حول البحر الميت حتى قادش بارينا، وعصيون جابر، وباتجاه البحر الأحمر عبر الجزء الأعرض من القفار حتى نهر الفرات، وهذه هي العربية الكبرى التي فيها مكة، المدينة المدفون فيها محمد (ﷺ) (كذا).

وليكن ما قيل حتى الآن عن البلدان المصابقة للأرض المقدسة كافيًا، ولقد أخذت الجزء الأكبر مما قدمته من كتابات الأب المبجل في الرب،

اللورد جيمس دي فيتري، نائب الكنيسة الرومانية المقدسة في الأرض المقدسة، ومهما يكن الحال، لقد رأيت معظم هذه الأماكن بأعينى. ودعوني الآن أحول قلمي إلى وصف خاص للبلاد التي صارت من نصيب الأسباط العشرة.

٢ — وينبغي أن تعرفوا أولاً وقبل كل شيء، كما قلت من قبل، بأنني قد قسمت الأرض المقدسة إلى أربعة أقسام، وذلك تماشياً مع الأقسام الأربعة للسماء، أي: الشرق، والغرب، والجنوب والشمال، وبناء عليه فإن مجمل القسم الغربي متجه نحو البحر المتوسط، ومثل ذلك أجزاء القسمين، الجنوبي والشمالي، التي هي متصلة بالقسم الغربي. وعلى هذا سوف أبدأ مع الخط المستقيم لمدينة عكا، التي كانت تعرف قديماً باسم بطوليس، وأن أسير باتجاه الشمال لأصف المدن والأماكن القائمة على شواطئ البحر المتوسط.

وسوف نشرع على هذا بوصفنا من مدينة عكا، ونمضي من هناك بخط مستقيم نحو صور، ثم إلى المدن التالية لها، فهذه ستتولى وصفها في أماكنها، لكن من المعروف أن هذه المدينة لم تكن قط جزءاً من الأرض المقدسة، كما لم يملكها بنو إسرائيل في يوم من الأيام، وعلى كل حال إنهم عندما اقتسموا البلاد فيما بينهم أعطيت إلى سبط أشر، غير أن سبط أشر لم يملكها قط، فهي واقعة في مقاطعة فينيقية، وعلى بعد أربعة فراسخ نحو الجنوب يقوم جبل الكرمل، ومدينة حيفا، التي تقوم عند سفح هذا الجبل نفسه، خلف جدول قيسون، حيث قتل النبي إيليا كهنة بعل.

وتمتد مقاطعة فينيقية، أو سورية الفينيقية، مسافة ثلاثة فراسخ باتجاه جنوب هذا المكان حتى بترانيشيسا، التي تعرف باسم قلعة الحجاج (عثليت)، فهذا المكان هو الحد الجنوبي لفينيقية.

ومدينة عكا محصنة بالأسوار، وبتحصينات خارجية، وبأبراج، وخنادق، وشرفات وسواتر قوية جداً، وهي مثلثة بشكلها مثل ترس، حيث يطل طرفان منها على البحر المتوسط، أما الطرف الثالث، فيطل على السهل المحيط بها، وعرض هذا السهل أكثر من فرسخين في بعض الأجزاء، وفي بعض الأجزاء أقل، وهو خصب جداً، في المروج وفي الأرض المفلوحة، وفيه كروم وحدائق، ينمو فيها جميع أنواع الفواكه، ويوجد في المدينة عدد من الأماكن الحصينة والقلاع والحصون ممتلئة من قبل فرسان طوائف: الاستبارية، والداوية والتيتون، وهذه المدينة من أملاك ملك القدس، ولها ميناء واسع جداً، وذلك على الجانب الجنوبي حيث يمكن للسفن أن ترسو.

وعلى بعد أربعة فراسخ باتجاه الشمال من عكا تقوم قلعة ايمبرقي [حمصين] على شاطئ البحر، وهي مثل ذلك فيها وفرة من الكروم والحدائق، والمياه الجارية، وذلك عند سفح جبل شارون.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من هناك، وبعدما يعبر الانسان جبل شارون، تقوم قلعة اسكندرونة [جنوب صور]، التي يقال بأن الاسكندر الكبير قد بناها عندما كان يحاصر مدينة صور، وقد أعاد بلدوين ملك القدس عمارتها، وأسند حفظها إلى بعض النبلاء الذين نالوا ألقابهم منها، وفيها وفرة من المروج، والمراعي، وحقول التين، والزيتون، والكروم، وذلك وسط مياه جارية وحدائق.

وعلى بعد أكثر من فرسخ بقليل من هذه القلعة، يوجد بئر مياه الحياة الرائع (رأس العين) وذلك على بعد رمية سهم بعيداً عن الطريق الذي يقود إلى صور، ومياه هذا البئر قادمة من لبنان، وذلك حسبما جاء في نشيد الانشاد، ومع أنه يدعى بئراً بالمفرد، هناك أيضاً أربعة آبار أخرى، لها الشكل نفسه، لكن لها أحجام مختلفة، والبئر الرئيسي بينها مقياسة أربعين ذراعاً بالطول وكذلك بالعرض، وذلك حسبما قسته أنا شخصياً،

أما مقياس كل واحد من الثلاثة الأخرى فهو حوالي خمسة وعشرين ذراعاً، وهذه الآبار كلها مسيجة بأسوار قوية جداً من حجارة قاسية جداً، وهذه الأسوار متصلة ببعضها آخذة شكل بناء لا يمكن تدميره، وارتفاع الأسوار مقدار رمح أو حتى أعلى من ذلك، وتتجمع المياه في هذه الآبار ثم ترتفع، فتندفق من فوق الأسوار من كل جانب، وهناك مجرى ماء ينطلق من هذا المكان، ويسوق الماء داخل أقنية عميقة ومرتفعة بقدر قامة إنسان، فلقد جربت هذا وعرفته بنفسى، وذلك عندما دخلت إلى مجرى الماء الذي تجري فيه المياه، ويجر أهالي صور هذه المياه إلى جميع أجزاء السهل، حيث يسقون بها الحدائق والبساتين، والكروم، وقصب السكر، الذي ينمو هناك بكميات عظيمة، ومنه يتلقى صاحب صور مداخيل كبيرة، وتقوم هذه الآبار على بعد أكثر بقليل من رمية سهم بعيداً عن شاطئ البحر المتوسط، ومياهم هذه تدير في تلك المسافة الضيقة دواليب ست طواحين ذوات حجم كبير، وتصب بعد هذا في البحر، وواضح أن هذه الينابيع تتوافق تماماً مع ما جاء في الآلهيات [٢٤ / ٣١]: «سوف أسقي حديقتي الأفضل، وسوف أروي بوفرة أرض حديقتي، وانظروا لقد صار جدولى نهراً، وصار نهري بحراً»، وهذه المياه موائمة كثيراً ومفيدة للسكان.

وعلى بعد أقل من فرسخ واحد عن هذا البئر تقوم مدينة صور، وهي واقعة على شاطئ البحر، وقد نالت المدح والاطراء بما فيه الكفاية من قبل حزقيال، وإشعيا، وارميا، ومن أسفار العهد القديم الأخرى، وكان من المعتاد امتلاكها لجدول من مياه الحياة المتقدمة الذكر، جلب من هناك من خلال أنابيب مدهشة، وأهرامات ما تزال آثارها مشاهدة حتى هذا اليوم، ولقد زرت هذه الأماكن ورأيتها بعيني.

ويحكى بأن مدينة صور قد بنيت من قبل تيراس بن يافث، وكان ذلك بعد الطوفان، ثم أعيدت عمارتها من قبل فينيق، كما تقدم القول،

وصارت عاصمة فينيقية، ولها أسوار واسعة محيطتها بها، هي كما أعتقد أعظم من أسوار مدينة عكا، وهي ذات شكل مستدير، تقف في البحر، فوق صخرة قاسية جداً، محاطة تقريباً من جميع الجهات بالبحر، وذلك باستثناء الجهة الشرقية، من المدينة، وهي منها قام بنوخذ نصر أولاً، ثم الاسكندر فيما بعد، بوصلها باليابسة، وذلك لمسافة مقدارها رمية حجر، وهي مسيجة في هذا المكان بثلاثة أسوار، قوية وعالية، وسماكتها خمسة وعشرين قدماً، وقد جرى تمين هذه الأسوار كثيراً بوساطة اثني عشر برجاً حصيناً، هي الأحصن بين ما شاهدته، حيث لا مثيل لها في جميع أنحاء العالم، والقلعة متصلة بهذه الأبراج، وهي قلعة فائقة القوة والحصانة، قائمة فوق صخرة في البحر، ومحاطة أيضاً بأبراج مع أماكن حصينة، ولا يمكن للعالم كله أن يستولي على هذه المدينة بغير خيانة، وفي هذه المدينة آثار مقدسة كثيرة، وذلك حسبنا نعلم من خلال التاريخ اللاهوتي، حيث حدثنا عن الشهداء الذين تألموا هناك في أيام ديوكليسيان، فالرب وحده يعلم كم هو عددهم، ويرقد أورجين مدفوناً هناك، في قبر مبني في جدار كنيسة الضريح المقدس، فلقد رأيت ضريحه هناك، ويوجد هناك عمدة من الرخام والحجارة الأخرى، بأحجام عظيمة يقف الانسان مندهشاً لدى رؤيته لها.

ويوجد في هذه المدينة كرسي رئاسة أسقفية، فهي المدينة المطرانية لفينيقية، ولرئاسة الأساقفة فيها نواب ومساعدون منهم أساقفة بيروت، وصيدا، وعكا، وتمتد رعوية هذه المطرانية حتى بترانثيسا، أو قلعة الحجاج (عثليت) التي تقدم ذكرها.

وقد أمضيت هناك مرة عشرة أيام، وقمت في مرات كثيرة بفحصها بكل دقة وبقدر ما استطعت.

وعلى الرمال، على مسافة رميتي سهم، خارج بابها الشرقي، يعرضون مكاناً، يقولون بأن المسيح قد وعظ فيه، حيث رفعت امرأة كانت بين

الحشد صوتها، وقالت: «بورك الرحم الذي حملك» الخ، ويعرضون أيضاً هناك صخرة عظيمة، كان المسيح قد وقف عليها آنذاك، وهذا المكان لم تغطه الرمال قط، مع أن الرمال في ذلك المكان خفيفة، وتتطاير هناك مثلما يتطاير الثلج في الشتاء في البلدان الغربية والشالية، ولدى تطاير الرمال بوساطة الريح تتكوم هناك الأسيجة والأماكن المشابهة، غير أن هذا المكان، وإن قام في وسط الرمال، قد بقي دوماً غير مغطى في الصيف وفي الشتاء، وذلك حسبما رأيت بعيني.

ويوجد في ذلك المكان أيضاً عمود مرمي على الأرض، مشكلاً علامة، قد قيل بأن تلك البقعة هي المكان الذي جرى فيه قتل بعض الحجاج لدى زيارتهم لتلك المنطقة، وقد قتلوا بشكل خياني من قبل المسلمين.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ قصيرة، إلى الشمال من صور، يجري نهر الليطاني، ويصب في البحر المتوسط، وإلى هذا النهر وصل يونانان أثناء مطاردته للملك ديميتريوس، وذلك حسبما نقرأ في سفر المكابيين الأول، وينبع هذا النهر من ايطورية أو جليل الأمم، وذلك من منطقة كان اسمها في القديم بلاد الراحوب، وصار فيما بعد كابول، وهو يجري قاطعاً قلعة الشقيف، التي يمتلكها فرسان الداوية، وذلك على مقربة من رامه، التي هي المكان الذي إليه طارد يوشع الملوك الواحد والثلاثين، وذلك حسبما نقرأ في سفر يوشع.

وعلى بعد فرسخين من هذا النهر تقوم صرند الصيداويين، التي يرى الناس أمام بابها الجنوبي بيعة أقيمت فوق المكان الذي جاء إليه النبي إيليا إلى المرأة الصرندية حيث سكن، ثم أقام ابنها من الموت، والعلية التي استراح فيها ما تزال مشاهدة هناك حتى الآن، ولا تحتوي الصرند على أكثر من ثمانية بيوت قائمة، وتدل خرائبها على أنها كانت فيما مضى مدينة عظيمة.

وعلى بعد فرسخين تقوم صيدا، التي هي مدينة عظيمة في فينيقية، ويبرهن على ضخامة حجمها حتى هذا اليوم خرائبها، وكانت عظيمة إلى حد أنني لو أردت الكتابة عنها، فإن ذلك سيكون صعب التصديق، وكانت قائمة فيما مضى وسط سهل مستطيل الشكل، يمتد من الشمال إلى الجنوب عند سفح جبل لبنان الغربي، فيما بينه وبين البحر، وكانت مدينة فائقة الجمال، ولقد بني من وسط خرائبها مدينة أخرى، وصحيح أنها مدينة صغيرة بالفعل، لكنها حصينة، فهي أشبه بالحصن، وهي قائمة جزئياً على ساحل البحر، ولها على جانبيها قلعتين حصينتين جداً، الأولى قائمة في الشمال قائمة على صخرة في البحر، وقد بنيت هذه القلعة هناك من قبل حجاج من ألمانيا، وتقوم القلعة الثانية في جهة الجنوب، فوق رابية، وهي جيدة الحصانة، وهاتين القلعتين مع المدينة أيضاً تحت سلطان فرسان الداوية.

والمنطقة المجاورة خصيبة جداً، وفيها وفرة عظيمة من الأشياء الجيدة، ولها مناخ صحي تماماً، وهناك قصب سكر ممتاز، وكروم.

وأمام الباب الشرقي للمدينة القديمة، التي هي خرائب الآن، تقوم بيعة فوق المكان الذي جاءت إليه امرأة كنعانية، والتمست عوناً من أجل ابنتها التي تلبسها الشيطان، وكان ذلك على الطريق الذي يقود إلى الايطورية وإلى قيسارية فيليب (بانياس).

وتقع سلسلة لبنان الغربية على بعد فرسخ واحد إلى الشرق من صيدا، ويبدأ هذا الجبل، عند نهر الليطاني الذي تقدمت الإشارة إليه، ويمتد إلى مسافة سفر خمسة أيام، أي خمسة فراسخ فيما وراء طرابلس، وهو لا يبعد مطلقاً أكثر من فرسخين عن البحر، باستثناء قرب طرابلس، حيث أنه يبعد نحواً من ثلاثة فراسخ، ويصل في بعض الأماكن إلى قرب البحر، إلى حد عدم توفر طريق للعبور، وهو مليء بكروم رائحة، وذلك مثلما كتب عنه: «والرائحة هناك ستكون كخمر

لبنان» [هوشع: ١٤ / ٧ — مع فوارق]، وتصنع الخمرة الجيدة على طول الطريق إلى قلعة المرقب.

وعلى بعد تسعة فراسخ فيما وراء صيدا، تقوم مدينة بيروت القديمة والجليلة، حيث يقال بأن الرب قد بشر ووعظ، وصنع اليهود تمثالاً من صلصال سخرية منه، وعندما صلبوا هذا التمثال سال منه كثيراً من الدم، مازال محفوظاً بإجلال حتى هذا اليوم في أماكن كثيرة.

والأسقف في هذه المدينة هو نائب لرئيس أساقفة صور، مثله في ذلك مثل أسقف صيدا، ويمتد الكرسي المطراني لمدينة صور لمسافة ثلاثة فراسخ بعد بيروت، أي إلى ممر نهر الكلب، فهناك يصب هذا النهر في البحر، ومثل ذلك تنتهي هنا حدود بطريركية القدس، وهنا تبدأ بطريركية أنطاكية وكونتية طرابلس، ويدعى هذا المكان باسم ممر الكلب، ولا يمكن عبوره إلا بإذن من المسلمين، لأن عدة رجال فقط يمكنهم أن يمنعوا العالم كله من العبور هناك.

وعلى بعد ستة فراسخ من بيروت، وعلى شاطئ البحر، تقوم مدينة بيلوس [جبيل]، وهي أول مدينة في بطريركية أنطاكية، ولهذه المدينة أسقف خاص بها، وقد أشار حزقيال إلى هذه المدينة أثناء مدحه لمدينة صور حيث قال: « شيوخ جبيل وحكامؤها كانوا فيك قلافوك، جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك» [حزقيال: ٢٧/٩]، وصاحب جبيل هو من أتباع كونت طرابلس، واسم هذه المدينة في هذه الأيام جبيل، وهي مدينة صغيرة جداً.

وعلى بعد أربعة فراسخ من جبيل تقوم البترون، وهي مدينة كانت فيما مضى غنية جداً بإنتاج خمر رائع، لم يكن في الدنيا أجود منه، غير أنها مدمرة الآن تماماً.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ تقوم قلعة [أنفة] راس شكاء، التي معظمها تقريباً قائم في البحر، وهي من ممتلكات أمير أنطاكية، ولقد رأيت فيها اثني عشر برجاً، والموقع بالفعل حصين جداً، والخمرة في هذه البلدة هي الخمرة الأكثر شهرة في جميع هذه الأماكن.

وعلى بعد فرسخين من راس شكاء، وخلفها تقوم مدينة طرابلس، وهي مدينة جميلة جداً، قائمة كلها تقريباً في البحر، مثلها في ذلك مثل صور، وهي مليئة بالناس، حيث يسكن فيها الاغريق واللاتين والأرمن، والموارنة والنساطرة، وآخرون كثراً، وكثير من الأعمال تعمل فيها من الحرير، وسمعت بشكل مؤكد أن فيها نساجون للحرير، ولوبر الجمل، ولأقمشة أخرى مماثلة.

ولاشك أن المنطقة المحيطة يمكن دعوتها باسم الفردوس، بسبب وجود ما لا حدود له من الكروم الجميلة، ومغارس الزيتون، والتين، وقصب السكر، ولا أذكر أنني رأيت مثل هذا في أي مكان آخر من العالم.

وطول السهل القائم أمام المدينة فرسخ، وعرضه نصف فرسخ، ويوجد في هذه البقعة حدائق، فيها مختلف أنواع الفواكه بوفرة كبيرة، حتى قيل بأن دخل أصحابها منها كل سنة يبلغ ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ وراء هذه المدينة يقوم جبل لبنان، الذي ينبع عند سفحه «نبع الحدائق» (نهر قاديشا)، وهو ينبع لمياه الحياة، وجداول من لبنان، نقرأ عنها في نشيد سليمان، ويظهر هذا النبع أنه ينبع قليلاً، لكنه يقوم فجأة بجمع قواه، فيعمل نهراً قوياً وفائق العظمة، وهويسقي جميع الحدائق والسهل بين طرابلس وبين لبنان، ويزيد من ثراء المنطقة بشكل رائع، ومياهه ممتازة، حيث أنها باردة وعذبة، ويوجد على ضفته كثيراً

من الصوامع، كما جرى بناء الكثير من الكنائس، وينبع كما قلنا من سفح الجبل، ويلتف جزئياً حول جبل النمر، ثم يساق بين الحدائق لسقيتها، هذا ولن نقوم بذكر الجداول الأخرى التي مثل هذا تصب في البحر، في أماكن مختلفة، ومؤكداً ما جاء في سفر إستير وقيل عن هذا النبع «ومن نبع صغير صنعت فيضاً عظيماً، وماء كثيراً»، [استير: ١١ / ١٠].

وعلى فرسخين من طرابلس يقوم جبل النمر، الذي له شكل مستدير، وهو مرتفع بعض الشيء، قائم على بعد فرسخ واحد من لبنان، ولقد رأيت عند سفحه، في الجانب الشمالي كهفاً فيه قبر طوله اثني عشر قدماً، ويزور المسلمون هذا المكان بتقوى، ويقولون بأنه قبر يوشع، وهذا مالا أعتقد أنه صحيح، لأن العهد القديم قال بأنه دفن في تمه — حارس [القضاة: ٢ / ٩] إلى جانب جبل افرام، قرب شكيم، والذي أميل للاعتقاد به أن هذا هو قبر كنعان بن حام بن نوح، أو قبر واحد من أولاده، الذي من الممكن البرهنة على أنه سكن في ذلك المكان نفسه، وذلك حسبما سنتحدث فيما بعد.

وعلى بعد حوالي ثلاثة فراسخ إلى الشمال من هذا الكهف تقع نهاية جبل لبنان وسلسلة جبال لبنان الشرقية، ويرى الإنسان عند المكان الذي يلتقيان فيه قلعة عرقة، وهي القلعة التي بناها عرقة بن كنعان، وأطلق عليها اسمه، فهذا ما نتعرف عليه من سفر التكوين: ١٠، ومن أخبار الأيام الأول: ١ / ١٥، وهذه الأرض الذي ينتهي بها جبل لبنان رائعة جداً وجميلة، وخصبة، أما من أجل وضع وطول جبل لبنان فلسوف أحدثكم عن ذلك لدى الحديث عن قيسارية فيليب [بانياس] ونبع نهر الأردن.

وعلى بعد نصف فرسخ إلى الشرق من قلعة عرقة، تقوم السن، وهي بلدة بنيت من قبل سينوس بن كنعان، وهو أخو عرقة، وكان ذلك بعد

الطوفان، وليس بعيداً عن عرقة، وذلك حسبما جاء الخبر في شروح سفر التكوين، ومهما يكن من أمر، فإن النساطرة الذين يسكنون هناك قد أخبروني، بعدما سألتهم، بأن البلدة قد حملت اسمها من سينوكيم Synochim، ولقد حصلت على الجواب نفسه من مسلمي ذلك المكان.

ودون قلعة عرقة وبلدة سينوكيم، يوجد سهل كبير، فائق الجمال والخصوبة، ويمتد حتى الكرك [حصن الأكراد]، التي كانت فيما مضى من ممتلكات فرسان الاستبارية، وذلك امتداداً حتى أنطرطوس التي تعرف الآن باسم طرطوس، وطول هذا السهل حوالي أحد عشر فرسخاً، وستة فراسخ عرضاً، ويحتوي هذا السهل على الكثير من القرى، والحدائق الجميلة، وأشجار الزيتون، وأشجار التين، وبقية أنواع أشجار الفواكه من مختلف الأنواع، إلى جانب الكثير من الأخشاب، فضلاً عن هذا كله، في هذا السهل وفرة من الجداول، والمراعي، ولهذا يسكن التركمان، والمدينيين Midianites، والبدو هناك في الخيم مع زوجاتهم وأولادهم، وقطعانهم وجمالهم، ولقد رأيت هناك قطعاً كبيراً جداً من الجمال، وأعتقد أنه كان هناك عدة آلاف من الجمال.

ويجد هذا السهل من جهة الشرق جبال مرتفعة لكن ليس كثيراً، وترتفع هذه الجبال على مقربة من عرقة، وتمتد حتى الكرك، ويسكن في هذه الجبال قوم اسمهم الباطنية جفاة، وأناس قساة يكرهون الصليبيين، والمسافة من بلدي عرقة وسينوكيم، عبر ذلك السهل إلى طرطوس هي ثمانية فراسخ، وعرفت طرطوس بهذا الاسم لأنها تقوم في مقابل أرواد.

وأرواد هي جزيرة في أعماق البحر، وذلك على بعد نصف فرسخ عن اليابسة، وقام فيها وما يزال حتى أيامي هذه مدينة جميلة، ورد ذكرها لدى حزقيال في قوله: «بنو إرواد مع جيشك على الأسوار من حولك» [حزقيال: ٢٧/١١]، وقد جاء في الشرح قوله: «أرواد مدينة

قائمة في البحر في مقابل طرطوس وعلى مقربة من صور»، وفي الحقيقة إن المسافة فيما بينها وبين صور سفر خمسة أيام، وأسس هذه المدينة أرايوس، وهو ابن كنعان، وكان ذلك بعد الطوفان.

ولنلاحظ هنا أن حام بن نوح، قد ولد كنعان، بعد الطوفان، وولد كنعان صيدون، الذي كان أول أولاده، وكذلك حثيا، واليوسى، والأموري، والجرجاشي، والحوي، والعريقي، والسيني، والأروادي، والصماري، والحمانى [التكوين: ١٠/١٥ - ١٨]، ومن هؤلاء انتشرت أسر الكنعانيين في الخارج، وأربعة من الأحد عشر ولداً من أولاد كنعان، وأعني بذلك: صيدون، بكره، وهو الذي بنى صيدا، وعرقه وهو الذي أسس عرقه، وسينوس وهو الذي أسس سينوكيم، وأرواد وهو الذي أسس أرواد، وكما قلنا، إن هؤلاء الأربعة قد بقيوا في تلك البلاد القائمة عند نهاية لبنان، وذلك حسبها حكى لنا، غير أن السبعة الآخرين، أي: حثيا، ويوس، وأمور، وجرجاش، وحوي، وعرقه، وحمانى، قد تركتهم يارب إسرائيل لأنفسهم، حتى يتعلموا كيف يقاتلون، هذا وأوابد وأضرحة الأولاد الأربعة الأولى مرئية في هذه الأيام على بعد فرسخ واحد قبل أن يصل الانسان إلى طرطوس، وهي فائقة الثراء ولها حجم رائع، ولقد رأيت الحجارة هناك، وقمت بقياس إحدى الحجارة فوجدت طولها أربعة وعشرين قدماً وعرضها مثل ارتفاع رجل طويل، وعلى هذا إنه لأمر رائع النظر إليها، فكيف جرى رفع هذه الأحجار ومن ثم استخدامها في البناء، فهذا كله فوق فهم الناس وإدراكهم.

وإلى جانب طرطوس، وعلى بعد نصف فرسخ إلى الشرق منها، هناك بعض الجبال، غير أنها ليست عالية جداً، كما أنه ليس من الصعب الوصول إليها، وهؤلاء في البلاد التي اسمها بلاد الحشيشية، الذين سوف نأتي على وصف طقوسهم بشكل مطول أكثر فيما بعد.

وقد بشر القديس بطرس لمدة طويلة في طرطوس، وذلك عندما كان في طريقه إلى أنطاكية، فهذا ما نقرأ عنه في رحلة القديس كليمنت.

فهنا وجد كليمنت أمه، وهنا أيضاً بنى القديس بطرس أول كنيسة تشريفاً للعدراء المباركة، وهذه الكنيسة موجودة حتى هذا اليوم، وقد احتفلت فيها بقداس، لأنني أقمت هناك لمدة ستة أيام.

وعلى بعد سبعة فراسخ من طرطوس تقوم قلعة المرقب، التي هي من أملاك رهبان الاسبتارية، أي فرسان مشفى القديس يوحنا، وهذه القلعة مطلة على مدينة بانياس، وعلى بعد فرسخ واحد عن البحر، وهي محصنة بشكل جيد، وقائمة فوق جبل مرتفع جداً، وقد نقل الآن مقر الأسقف الذي كان في بانياس، إلى القلعة، وذلك بسبب إهانات المسلمين، والأسقف هناك هو نائب لرئيس أساقفة أفاميا، مثله في ذلك مثل أسقف عرقة.

وتشكل مدينة بانياس، والنهر الذي يحمل الاسم نفسه، وهو الذي يجري مجتازاً لها، حدود مملكة القدس، وهنا، بالوقت نفسه، تبدأ إمارة أنطاكية، وهنا أيضاً تنتهي كونتية أنطاكية، والآن، إنه على كل حال، لقد سافرت إلى ما وراء هذا المكان، ورأيت البلاد، ومع هذا لم أكتب شيئاً عنها، لأنني لا أنوي أن أكتب شيئاً، إلا عن الأرض المقدسة.

وليكن ما قد قيل فيه كفاية عن القسم الأول.

هنا بداية القسم الثاني من الأرض المقدسة

٣ — ينطلق القسم الثاني من عكا نحو الشمال، وأول مكان يصل الانسان إليه، إذا ما انطلق من عكا باتجاه الشمال تماماً، هو القلعة التي كانت تعرف باسم قلعة القرين، والتي كانت فيما مضى من أملاك فرسان التيوتون، وهي الآن مهدمة تماماً.

وعلى بعد أربعة فراسخ منها، وبالاتجاه نفسه تقوم قلعة تبنين، وهي مكان حصين جداً، قد بنيت من قبل صاحب طبرية، وذلك لضبط مدينة صور، عندما كانت صور بأيدي المسلمين، وهي تبعد سبعة فراسخ عن مدينة صور.

وعلى بعد أربعة فراسخ من هناك تقوم مدينة حاصور [قرب نبع الليطاني] القديمة، حيث سكن هناك الملك القوي يابن، الذي قاتل ضد يوشع وإسرائيل مع الملوك الواحد والثلاثين عند مياه ميروم، ولقد جاء في سفر يشوع: ١١، بأن يوشع قد أحرق مدينة حاصور القوية بالنار، ويشهد على شهرة هذه المدينة حتى هذا اليوم خرائبها، وآثارها.

وعلى بعد حوالي الستة فراسخ إلى الشمال من هناك، توجد مدينة بانياس، وذلك عند سفح جبل لبنان، وكانت هذه، حسبنا قرأنا في سفر القضاة، تعرف أولاً باسم ليش Laish ، وبما أنها كانت بعيدة عن صيدا، مسافة تقارب الأحد عشر فرسخاً، وبما أنها لم يكن لها حلفاء (كانت موجودة في الوادي المجاور لبيت راحوب) فقد استولى أولاد دان عليها، وأطلقوا عليها اسم لشم — دان [يشوع: ١٩/٤٧]، وذلك صدوراً عن اسم أبيهم دان، وغالباً ما أطلق عليها فقط اسم دان، وذلك تماشياً مع ما جاء في التوراة قوله «يجتمع إليك كل إسرائيل من دان إلى بئر السبع» [صموئيل الثاني: ١٧/١١]، ذلك أن هذه المدينة تشكل الحد الشمالي للأرض المقدسة، مثلما تشكل بئر السبع الحد من الجنوب، وعلى هذا نقراً في سفر الملوك الأول: ٣/١٩ بأن: «إيليا أتى إلى بئر السبع التي ليهودا»، ثم نقراً بعد هذا أنه هو نفسه: «سار في البرية مسيرة يوم»، ولا شك أن هذا يعني بجوار تلك المدينة، واسمها الآن بيت جبرين (كذا)، هذا وعندما كان فيليب طيطراخ الايطورية مع منطقة الطرخونية، رغب في أن تحمل مدينة بانياس — أو دان — اسمه، وأن يصبح اسمها قيسارية فيليب، ويطلق عليها الاغريق اسم

بانياس، وهذا الأسماء كلها باتت منسية الآن، وهي تدعى بشكل عام باسم بلياس.

وفوق هذه المدينة، من على الجانبين هناك نبعاً نهري «الأر» و«دان»، وذلك عند سفح جبل لبنان، وهما يلتقيان أمام باب المدينة، ويشكلان نهراً واحداً، وهو نهر الأردن.

لكن لاحظ أن هذا ليس نبع الأردن الحقيقي، لأن يوسفوس أخبرنا — وما قاله صحيح — أنه على بعد مائة وعشرين غلوة من ذلك المكان هناك نبع اسمه فياله Phiale [بركة الرام] هو ملء بشكل دائم، ولم يفيض قط، بل يجري تحت الأرض إلى ذلك المكان، وهناك يتدفق، ومن ثم يعرف باسم دان، وقد تبرهن هذا في كثير من الأحيان برمي قش في فياله، والعتور عليهم بعد ذلك في نبع دان، ولا يطلق المسلمون على هذا النبع اسم فياله بل ميدان، أي ماء دان، كأن تقول هذه مياه دان، لأن معنى كلمة «مي» في العربية «ماء»، ودان «تل القاضي» هو اسم النبع المتقدم الذكر، ويطلق القديس متى على هذا المكان اسم «مجدل» [متى: ٣٩/١٥]، واسمه عند القديس مرقس دلمانوثة [مرقس: ٨/١٠]، وهو ليس بعيداً عن مدينة [أرض] السواد، قرب أبدة أيوب المبارك [الشيخ سعد] وذلك في منطقة الطرخونية، وهذا سوف يجري شرحه بشكل أطول فيما سيأتي.

وبعد دوران طويل من هذين النبعين، يلتقي هذان النبعان أمام باب بانياس، ويشكلان نهر الأردن، ويفصل هذا النهر فيما بين الطرخونية والايطورية، وأخيراً يصب في بحر الجليل فيما بين كفر ناحوم وكورزين، على بعد أربعة فراسخ من مدينة قيدار، القائمة فوق رابية مطلة عليه.

وفي منتصف الطريق فيما بين بانياس وبحر الجليل، يدخل النهر إلى

وادي، حيث يشكل بركة في أثناء الوقت الذي تذوب فيه الثلوج من على جبل لبنان، وتدعى هذه البركة باسم مياه ميروم Merrom حتى هذا اليوم، وهنا تحارب يوشع مع يابين ملك حاصور والملوك الواحد والثلاثين الآخرين، وهزمهم وطاردهم حتى مياه مسرفوت وإلى صيدون العظيمة، وذلك لمسافة تقارب ثمانية فراسخ [يشوع: ٨/١١]، وتجف هذه المياه كلها تقريباً في أيام الصيف، والشعراء والنباتات التي تنمو هناك كثيفة جداً، حيث مأوي للأسود والذئبة وأنواع الحيوانات الضارية الأخرى، مما يجعلها مكاناً للصيد الملكي، ويقع النصف الأول من هذا الوادي في القسم الثاني المتجه نحو الشمال، ويقع النصف الثاني في الثلث التالي، والجزء الثالث، الواقع خلف هذا الوادي، والممتد على طول الضفة الشرقية لنهر الأردن حتى لبنان وذلك على جهة اليسار، وإلى جبل حرمون نحو الجنوب الشرقي، وإلى مدينة بصرى إلى الشرق فوق جبل سنير، المتصل بجبل حرمون، إنه السهل المعروف باسم سهل لبنان، أو منطقة الطرخونية، وذلك حسبما جاء في سفر يشوع، وسبب التسمية بالطرخونية، هو أن هذه المنطقة كلها قليلة المياه الجارية، ولذلك قام سكانها بجمع مياه الأمطار داخل أقنية وصهاريج، وقاموا بعد ذلك بنقلها إلى مكان آخر بوساطة طراخين، أو أنابيب، وذلك من أجل سقاية أنفسهم مع حيواناتهم.

وبما أننا أشرنا إلى جبال: حرمون، ولبنان، وسنير، بات من الضروري هنا، التحدث إليكم بشكل أطول حولهم، لأن بذلك يمكن للمسائل الأخرى أن تفهم، وعلى هذا، عليك أن تعرف أن الجبال التي إلى جانب بركة أرنون، والتي بين عمان ومآب والأموريين، وكذلك جبل جلعاد، القائم في بلاد عوج، ملك بيسان، وجبل سنير، وجبل حرمون، فوق بعل — جاد، وبحر الجليل، وجبل لبنان أن تعرف أن كل هذه الجبال هي جبال متصلة، تحمل أسماء متنوعة في أماكن متعددة، مثلما يمكن

رؤية ذلك في أي يوم في جبال الألب، التي تفصل ألمانيا عن لومبارديا، ومهما يكن الحال، إن جبل جلعاد هو الأعلى بين هذه الجبال جميعها، ويبدو بالفعل كأنه رأسهم جميعاً، وعلى هذا أعتقد أن ما قاله إرميا (٦/٢٢): «جلعاد أنت لي. رأس من لبنان» هو صحيح تماماً، وجبل سنير متصل بجبل جلعاد، وهو أيضاً يعرف باسم سكير، لأن عيسو، أو سكير، قد سكن فيه، وذلك كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد، وهو قائم فيما وراء بحر الجليل، وهو من حصة نصف سبط منشا، ويتصل في المكان نفسه بجبل حرمون، الذي يحد منطقة الطرخونية، ويمتد حتى دمشق، التي يتصل قربها بلبنان، بين بانياس ودمشق، وبالنسبة إلى لبنان نفسه، فالذي أعتقده، هو أن أعلى مكان فيه هو حيث يجتاز مدينة بانياس، وهذا المكان أعلى من أي مكان آخر في السلسلة كلها التي تدعى باسم سلسلة لبنان، والسلسلة في هذا المكان تبعد فرسخين عن مدينة صور، ومن الممكن رؤيتها بوضوح من صور، وفي الحقيقة لقد رأيتها أنا نفسي من هناك تشع منيرة في وسط الليل، وطول السلسلة رحلة سفر خمسة أيام، وقيمتها طوال تلك المسافة مغطاة بالثلج، وهي تقترب أكثر فأكثر من شاطئ البحر، وهكذا حتى نجدها عند السفوح، أي فوق بانياس، تبعد اثني عشر فرسخاً عن البحر، وتبعد عند النهاية، أي قرب عرقة ثلاثة فراسخ عن البحر، والذين يسافرون بحراً من صور إلى طرطوس يرونها طوال الطريق، ودونها تقترب سلسلة لبنان الشرقية من البحر أكثر من أي مكان آخر، وهناك وديان خصبة في كل من لبنان وسلسلة لبنان الشرقية، كلها تفلح بشكل جيد، وهناك وفرة من المروج، والكروم، والحدائق والبساتين، وهناك — بكلمة موجزة — جميع الأشياء الجيدة في العالم، ويقطن فيهما كثير من الاقوام، كما قلنا من قبل، من أمثال: الموارنة والارمن، والاغريق، والنساطرة، واليعاقبة، والجورجيين، الذين هم جميعاً مسيحيين، وهم حسبما يقولون خاضعون جميعاً لكنيسة روما.

هنا بداية القسم الثالث من الأرض المقدسة

٤— يمتد القسم الثالث من عكا إلى الجنوب الشرقي، وعلى ثلاثة فراسخ على هذا الامتداد تقع قلعة جدّين [شرقي عكا]، وهي قائمة على جبل شارون، وكانت هذه القلعة فيما مضى من أملاك طائفة التيوتون، غير أنها مهدمة الآن.

وبعد مسافة ثلاثة فراسخ تقوم قلعة الملك (معليا) في وادٍ، وكانت أيضاً فيما مضى ملكاً للطائفة نفسها، وفيها وفرة من جميع الأشياء الجيدة، وفواكه من أنواع موجودة في تلك المنطقة ونادرة الوجود في مناطق أخرى، وهي الآن بأيدي المسلمين.

وعلى بعد أربعة فراسخ باتجاه مياه ميروم هناك وادي صعنينم، حيث نصب حابر القيني خيمته، وذلك ليس بعيداً عن مدينة حاصور، وكانت زوجته التي اسمها ياعيل هي التي قتلت سيسرا، قائد جيش ملك حاصور، بغرس وتد الخيمة في صدغه، وذلك حسبما نقرأ في سفر القضاة [١١/٤—٢٤].

وعلى مسافة فرسخين يقع وادي كابول [جنوب شرقي عكا] الذي يدعوه المسلمون باسم زابول، وأطلق على المنطقة اسم كابول، لإظهار عدم السرور، وذلك حسبما نقرأ في الإصحاح الثالث من سفر الملوك [الأول: ١٢—١٣]

وعلى مسافة فرسخين من هذا المكان تقوم قلعة صفد وكذلك مدينة صفد، وقلعة صفد —بتصوري— هي الأجل والأكثر حصانة بين جميع القلاع التي رأيتها قط، ذلك أنها قائمة فوق صخرة عالية جداً، وكانت بالعادة ملكاً لفرسان الداوية، غير أنها سقطت بشكل خياني منحجل، فيه إيذاء وألم لجميع الصليبيين، لأنها مادامت بأيدي السلطان، فهو المسيطر على جميع الجليل، أي على جميع ديار أسباط: زبلون، ونفتالي، وأشر،

ويساكر، ومنشأ وجميع البلاد حتى عكا، وصور، وصيدا.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشمال من صفد، وليس بعيداً عن سهل صعنيم تقوم قادش نفتالي، التي جاء منها باراق بن أبنوعم، الذي قاتل ضد سيسرا على جبل الطور، وكانت هذه مدينة ملجأ في ديار سبط نفتالي، وكانت مليئة بجميع الأشياء الجيدة، ويرى في هذا المكان حتى اليوم خرائب واسعة، وأضرحة فائقة الجمال.

ويوجد على بعد فرسخين وراء قلعة صفد، حيث ينزل الانسان من الجبل باتجاه الشرق، وعلى بعد رمية حجر من بحر الجليل، وفوق الطريق الذي يقود نحو الشرق، يوجد درب فوق ذلك الجبل، غالباً ما صعد يسوع المسيح عليه، إلى حيث — كما حدثنا القديس متى — كان يعظ ويقيم القداسات، وهناك أشبع خمسة آلاف انسان من خمسة أرغفة وسمكتين، وإلى هناك اعتاد الصعود والصلاة، بعد ما كان يبعد عنه الحشود، وإلى هناك هرب عندما أرادوا جعله ملكاً، وهنا علم حواريه الصلاة، وهنا أمضى الليل في الصلاة، وحدث عندما كان نازلاً من هذا المكان، أن قام قائد المائة بالتوسل إليه لمساعدة خادمة المشلول، وإليه إلى هناك جاء حشد كبير من المرضى، ومن الذين تلبستهم الشياطين، وهنا لمس المجذوم فشفاه، وهناك وقف وسط الحقل مع حواريه، ويمكن للانسان أن يرى من هذا الجبل بحر الجليل، والايطورية، ومنطقة الطرخونية بعيداً حتى لبنان، وأن يرى كذلك سنير، وحرمون، وبلاد زبلون، ونفتالي، حتى قيذار وجميع منطقة جنسارث حتى دوثنان وبيت أوليا، وأماكن أخرى كثيرة، وطول هذا الجبل حوالي رميتي سهم، ورمية حجر أو أكثر عرضه، وهو معشوشب وجميل، وموائم لأعمال الوعظ والتبشير، ومشاهد هناك حتى هذا اليوم، الصخرة التي جلس عليها يسوع المسيح، عندما قام بالوعظ، وأيضاً الأماكن التي جلس فيها الحواريون، (واسم هذا المكان لدى المسيحيين: المائدة).

وعند سفح هذا الجبل، على مقربة من البحر، أي على بعد حوالي الثلاثين خطوة، هناك نبع لماء الحياة، مسيج بجدار، ويطلقون على النبع اسم عرق النيل (عين التبغه)، لأن سمك الـ *Coracinus* يتكاثر فيها، وهذا السمك ليس موجوداً في مكان آخر، واسم هذا النبع عند يوسفيوس «كفرناحوم»، لأن السهل كله الواقع بين ذلك النبع ونهر الأردن» أي على مسافة قدرها فرسخين، يدعى كفرناحوم.

وعلى بعد حوالي العشرين خطوة من ذلك النبع، وعلى شاطئ بحر الجليل، يوجد الموضع الذي وقف يسوع عليه على الشاطئ، بعد قيامه، وقال لسبعة من حواربيه كانوا يصطادون السمك هناك: «أيها الأولاد هل لديكم أي شيء نأكله؟»، وعندما كنت في هذا المكان في يوم عيد القديس أوغسطين [٢٨-آب]، رأيت ثلاث طبعات لخطوات الرب يسوع قد طبعت على صخرة، لكن عندما عدت إلى هناك ثانية في يوم عيد البشارة، وجدت أن المسلمين قد أخذوا الصخرة.

وعلى بعد عشر خطوات من هناك، يوجد الموضع، الذي عندما خرج الحواريون من السفينة، رأوا فيه نار فحم، وسمكة موضوعة فوقها، وخبزاً، (ويدعى هذا المكان من قبل المسيحيين باسم المائدة).

وعلى بعد مسافة فرسخ واحد نحو الشرق من هذا المكان، توجد كفر ناحوم، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، غير أنها متواضعة جداً الآن، ليس فيها سوى سبعة بيوت لصيادي سمك فقراء، وبشأنها تحققت كلمة الرب يسوع المسيح في قوله: «وأنت يا كفرناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية». [متى ٢٣/١١].

وعلى بعد فرسخين من ذلك المكان يدخل نهر الأردن إلى بحر الجليل، وعلى الشاطئ الأقصى منه، من الممكن حتى الآن رؤية خرائب مدينة كورزين، وذلك على شاطئ بحر الجليل. وعلى مسافة

فرسخ واحد وراء ذلك المكان، أي كورزين، يبدأ صعود جبل سنير— المعروف أيضاً باسم سكير— والمدخل إلى الايطورية.

وبعد هذا بمسافة ثلاثة فراسخ، تقوم قيذار، وهي مدينة جليلة، بنيت في موقع حصين، على الطرف الشرقي لجبل سنير، ويمر من خلال هذه المدينة، الطريق الذي— كما تقدم القول— يسير شاطئاً بحر الجليل، ويجري نحو الغرب، وذلك حسبها جاءت الرواية في توبت: ١ / ١، واسم الطريق في اشعيا: «طريق البحر» [اشعيا: ١ / ٩]، لأنه يسير على طول شاطئ البحر، وأضاف اشعيا بقوله: «عبر الاردن» لأنه يقود إلى ما وراء الاردن إلى المنطقة التي تدعى آرام، وتدعى أيضاً باسم «جليل الأمم» لأنه عند ذلك المكان، الجليل محدود من قبل الأردن.

وإنه على بعد أربعة فراسخ من هذا المكان، الموضع الذي يصب فيه الأردن في بحر الجليل ويجري حتى قادش نفتالي، وفي منتصف الطريق بينهما يوجد نصف آخر من مياه ميروم، المتقدمة الذكر، ويمر نهر الأردن خلال وسط وادي مياه ميروم، وعندما يخرج من هناك يعطف مجراه أولاً باتجاه الشرق، ثم باتجاه الجنوب، وهكذا يصب في بحر الجليل.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشمال من مصب نهر الأردن، ومدينة كورزين، تقوم مدينة السواد، التي جاء منها بلداد، الوارد ذكره في أيوب باسم السوادي، وعلى مقربة منها، وعلى الجهة الشرقية يوجد ضريح أيوب.

وعلى السهول القريبة من هذه المدينة، وذلك على الجانب المتجه نحو مدينة قيذار، اعتاد المسلمون من بلاد آرام، والجزريون، وأهل حماه، وسورية، ومآب، وعمان، وجميع أجزاء بلاد الشرق، اعتادوا على التجمع هناك حول نبع فياله، المتقدم الذكر، وكانوا يعقدون سوقاً يستمر طوال

أيام الصيف وذلك بسبب جمال المكان ولطافته، وينصبون الخيام ذوات الألوان المتنوعة، التي تقدم مشهداً جميلاً جداً لأهل قিদار لدى النظر إليه من فوق الراية، وهذه الخيم هي التي ورد ذكرها في نشيد انشاد سليمان [٥ / ١] تحت اسم «خيام قিদار».

وعلى بعد أربعة فراسخ الى الشرق من مدينة كورزين تقوم مدينة قিদار، فوق رايية مرتفعة، ويطلق يوسفوس عليها اسم جمالا (الحصن)، لأن الجبل الذي تقوم عليه شكله يشبه شكل الجمل، مع تلعة في الوسط تشبه سنامه، وهي تنتهي بانخفاض يشبه شكل ذيله.

واعرف هاهنا— كما سلف بنا القول— أن المنطقة الموجودة قرب الأردن، وعلى الضفة الشرقية منه، والممتدة حتى جبل حرمون وبصرى، تعرف باسم منطقة الطرخونية، أو باسم «سهل لبنان» ويعرف الجانب الغربي من ضفة نهر الاردن باسم جليل الأمم، أو باسم الايطورية، أو كابول، أو «المدن العشرة»، ويمر «طريق البحر» في الوسط هناك، أي الطريق المنطلق من عكا والمار خلال وادي ديار سبط آش، وهو الذي يعرف الآن باسم وادي القديس جرجس [الخضر في البعنة]، والممتد إلى جبال منطقة الطرخونية، التي عبرها تقوم بلاد آرام، وبناء على هذا جاء في الشرح على قوله: «كان رجل في أرض عوص اسمه أيوب» (أيوب: ١ / ١): الخبر التالي: «ولد آرام— أبو السوريين، الذي أسس مدينة دمشق— عوص، الذي أسس منطقة الطرخونية، وهو الذي حكم فيما بين سورية المجوفة وفلسطين، وهي التي حملت اسمه فعرفت باسم بلاد عوص، وبناء عليه نقول فلان سكن في بلاد عوص، أو هو عوصي البلاد.

وحُكمت هذه المنطقة من قبل الطيطراخ فيليب، ومثلها أيضاً الايطورية، القائمة على هذا الجانب من بلاد الاردن، باتجاه الغرب، والممتدة حتى جبال الصيداويين، والسريان، وأهل عكا، وهي التي

تفصلها عن فينيقية، فكلتاها في هذا الثلث وفي النصف المتقدم، ويجدها من الشمال لبنان ومن الشرق نهر الاردن، ومن الجنوب بحر الجليل، ومن الغرب جبال فينيقية.

هنا بداية القسم الرابع

٥- يبدأ القسم الرابع من عكا، ويمضي نحو الشرق تماماً، ويمر من قرب قلعة صفد، ويدعها قائمة على يساره، ومن هناك يساير شاطئ بحر الجليل، حيث يمر من أمام مدينة كفر ناحوم، من قبل المكان الذي دعا فيه الرب متى من موضع استلام العشور، ومن الممكن في هذه الأيام رؤية بيت متى، والمكان الذي اعتاد على الجلوس فيه، على الطريق السلطاني، ثم إن الطريق يمضي صاعداً جبال حرمون، على الطرف الأقصى من الأردن.

ويوجد في هذا القسم المدن التالية:

والمكان الأول، ويبعد مسافة خمسة فراسخ عن عكا، هو عبارة عن قرية اسمها القديس جرجس (البعنه)، حيث من المعتقد أن القديس جرجس قد ولد في هذا المكان، وتقوم هذه القرية في واد واسع جداً، وخصب، وجميل بين التلال والروابي، ويمتد هذا الوادي الممتع حتى يصل إلى بحر الجليل، وكان بالعادة تابعاً لسبط آشر، ويمتد حتى صفد بطول يبلغ حوالي العشرة فراسخ، وما جاء حوله في سفر التكوين: ٤٩، هو صحيح تماماً، وذلك بسبب جماله، وذلك قوله: «آشر خبزته سمين وهو يعطي لذات ملوك» (٢٠)، وهذا القول صحيح تماماً فيما يتعلق بحصبة هذا السبط.

وعلى بعد مسافة أربعة فراسخ من هناك، وباتجاه الجنوب، لكن مع بعض الميل نحو الشرق هناك قرية نعسون (حاصور) العائدة لسبط

نفتاني في واد، وقد قرأنا عن هذا المكان في سفر توبيت.

وعلى بعد مسافة ثلاثة فراسخ من هناك باتجاه الجنوب، تقوم دوثنان، حيث وجد يوسف إخوته، ودوثنان قائمة عند سفح جبل بيت أوليا، وعلى بعد فرسخ منه، وهي بلدة فائقة الجمال، مليئة بالكروم، والزيتون، والتين، والمراعي الخصبة.

ومابرح يرى في هذا المكان، في الحقل الجب الذي وضع فيه يوسف من قبل إخوته، ولقد رأيتُه هناك إلى جانب الطريق الذي يمضي من جلعاد، ويتصل في بيت صيدا بالطريق الذي يذهب من سورية الى مصر، ويصعد هذا الطريق من دوثنان الى مقربة جبل بيت أوليا، ثم يعبر مرج ابن عامر، ويمر بجبل الطور على جهة اليسار، وذلك عبر سهل مجيدو، ثم يمضي صعوداً لجبل إفرايم، ويدخل الرملة، ومن هناك إلى غزة فمصر، وعبر هذا الطريق جاء الاسماعيليون الذين اشتروا يوسف.

ونقرأ في سفر الملوك الثاني حول بلدة دوثنان هذه، بأن السوريين التفوا حول الإشع هناك، وقادهم هو من هناك الى وسط السامرة، الواقعة على قرابة سفر يوم واحد. واعلم أن دوثنان ليس فقط اسم البلدة، بل تحمل المنطقة الاسم نفسه صدوراً عن اسم البلدة، وهذه المنطقة كانت منذ القديم تابعة لهذه البلدة، وهي منطقة منبسطة، مسيجة من كل جانب بهضاب منخفضة، وهي مروية بينابيع، ولذلك فيها مراعي جيدة، صالحة لإطعام المواشي.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من نعسون، وعلى مسافة حوالي الثلاثة فراسخ إلى الشرق من دوثنان، توجد مدينة نفتالي (قدس)، التي جاء منها طوبياس، وهي قائمة في مكان حصين، لأنه يوجد على جانبها الغربي جبل فائق الارتفاع، لا يمكن لإنسان أن يتسلقه، ويمكن فقط تسلق قطعة صغيرة منه على الجهة الشرقية، وأعتقد أن هذه المدينة كانت

تعرف باسم جتباتا Jotapata ،(جفات جنوب غربي صغد) في أيام استئصال اليهود، وذلك وفقاً ليوسفيوس، ففيها جرى حصار يوسفيوس نفسه من قبل الرومان، ووقع بأيديهم أسيراً، حسبما أخبرنا هو نفسه، واسمها في هذه الأيام سيريم Syrim(ميرون؟)، وهي على بعد أكثر من فرسخ بقليل عن صغد.

وعلى بعد فرسخين من نفتالي، عند زاوية بحر الجليل، حيث يبدأ بالانعطاف من الشمال نحو الجنوب، تمتد بيت صيدا(قرب المينة عند شيخ سياد) التي هي مدينة أندرو، وبطرس، وفيليب، ولا يتجاوز حجمها في هذه الأيام سبعة بيوت، وتقوم على طرف الطريق من سورية إلى مصر، وكان لديها في العصور القديمة مجرى ماء من النهر، دعاه يوسفيوس باسم الأردن الصغير، وهو يصب في بحر الجليل في منتصف الطريق بينها وبين كفرناحوم، وآثار هذا المجرى يمكن رؤيتها حتى في هذا اليوم.

وعلى بعد مسافة فرسخين نحو الجنوب تقوم المجدل التي هي قلعة مريم المجدلية، التي رأيت بيتها ما يزال قائماً هناك، وقد ولجت إلى داخله، وتقوم المجدل على شاطئ البحر، وذلك على بعد حوالي ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من بيت أوليا، ويوجد على جانبيها الغربي والشمالي سهل معشوشب كبير.

واعرف أن هذا القسم الرابع ليس فيه المزيد من البلدات على هذا الطرف من بحر الجليل، غير أنه يوجد على الشاطئ الآخر كثيراً من المدن والقلاع، العائدة لهذا القسم، وذلك في بلاد الجرسانيين الموجودة في مقابل هذا مباشرة.

ففي هذا المكان هناك كثير من المدن، منها على سبيل المثال: جرسه، وجدر، وفحل، والسواد مدينة بلداد السوادي، وتمان التي جاء منها

علفاز التمانى، وعدد كبير آخر.

وتقوم الآن بلدة جرسة(خرسة) على شاطئ بحر الجليل، عند سفح جبل سعير، تقريباً في مقابل طبرية، لكن نحو الشمال قليلاً منها، وكانت هذه بالعادة من أملاك نصف سبط منشا، الذي جاءت حصته عبر الأردن.

واعرف بأن هذه البلاد الواقعة عبر بحر الجليل كثيرة الجبال، وذلك كما بدا لي، لكنني لم أكن فيها قط، وقد كانت جزءاً من مملكة باشان، ويعرف شطر منها باسم جبل سعير، لأن عيسو قد سكن هناك، وذلك كما سأخبركم بعد قليل، وعرفت في مكان آخر باسم جبل سنير، لأنه كان هناك، وعرفت أيضاً باسم جبل حرمون، لأنه كان هناك أيضاً، وهكذا عرفت أماكن متعددة وجبال في هذه البلاد بأسماء مختلفة، ومع أن الجميع هو عائد لنصف سبط منشا، لكن نصف سبط منشا لم يملكها قط، لأن أبناء عيسو سكنوا في هذه الأجزاء، وما زالوا يسكنون حتى هذا اليوم، وهم يعرفون بشكل عام باسم المسلمين، لأنهم لا يختلفون عنهم لا باللغة أو العادات، إلا — ربما — في الطريقة التي ينظمون بها شعورهم، وكذلك بالألبسة التي يرتدونها.

لكن مع هذا عليك أن تعرف أن هناك جبل سعير آخر، أو أدوم، وذلك في مقابل قفار البحر الأحمر، حيث نقرأ في سفر التكوين: ١٤، كيف هزم كدرلعومر والملوك الآخرون الذين كانوا معه الحوريين في جبل سعير، فوقتها لم يكن هذا الجبل يعرف باسم جبل سعير، لأن عيسو الذي كان يدعى باسم سعير، ومن اسمه نال الجبل اسمه، لم يكن قد ولد بعد، وعلى هذا علينا أن نعتقد بأنه دعي بهذا الاسم مقدماً من قبل، وهكذا نقرأ في سفر التثنية: ٢(٤): «أنتم مارون بتختم لإخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير فيخافون منكم، فاحترزوا جداً» وقد قيل هذا أولاً لبني إسرائيل، عندما قاموا خارجين من مصر، وذلك عندما كانوا

في قادش بارينا(القفار)، وكانوا على وشك القدوم إلى جبل سعين، الذي هو قريب من قادش بارينا، المكان الذي كانوا فيه آنذاك، لكن من المؤكد أن بني إسرائيل لم يأتوا قط إلى تخوم جبل سعين هذا، القوائم عبر بحر الجليل، لأن بحر الجليل هذا متصل بدمشق، إلى حيث لم يصلوا مطلقاً.

وجبل سعين الآخر، الذي قرأنا عنه أنه متصل ببريه فاران، هو الجبل الذي تجول حوله بنو إسرائيل لأيام كثيرة، لأن الرب حرم عليهم الدخول إلى هناك، ونقرأ عن جبل سعين هذا في سفر التثنية: ٢(١٢): «وفي سعين سكنوا قبلاً».

وفي جبل سعين هذا الذي هو قريب من بحر الجليل، ومن جبل جلعاد، كان يسكن عيسو في الوقت الذي عاد فيه يعقوب من بلاد الرافدين إلى سورية، فنحن نقرأ في سفر التكوين: ٣٦، بأن عيسو الذي كان بلا شك ساكناً مع أبيه في بير السبع، أخذ كل ما امتلكه، وذهب للسكنى في منطقة أخرى، وهذا مما لا شك فيه، وقد فصل نفسه عن أخاه، ولقد التقى يعقوب، لدى عودته من بلاد الرافدين عند مخاضة جدول ييوق، المتصل بتلك البلاد باتجاه الجنوب، ونقرأ في سفر التكوين: ٣٢ / ٣١، أنه: «عندما عبر يعقوب فينييل أشرق له الشمس»، ونقرأ أيضاً بعد: «ورفع يعقوب عينه ونظر وإذا عيسو مقبل» [٣٣ / ١] الخ، وهذا المكان الذي اسمه فينييل مرثي حتى هذا اليوم، ومعروف بالاسم نفسه، ليس بعيداً عن سكوت، في المنطقة الشرقية عبر الأردن، فإلى هناك — كما قرأنا — جاء يعقوب فيما بعد مباشرة، وهذا المكان نفسه موجود عند سفح جبل سعين المتصل ببحر الجليل، وأما بالنسبة لجبل سعين، الذي سكن فيه الحوريون قديماً، والذي فيه يسكن أبناء عيسو الآن، هو بعيد سفر عدة أيام عن هذا المكان، ولم يكن بإمكان عيسو القدوم بشكل مفاجيء لرؤية أخاه، لأنه

بعيد جداً، وواقع وراء البحر الميت، وعلى مسافة سفر خمسة أيام منه، ومرد وجود هذه الأسباط المختلفة من أبناء عيسو، والأماكن المختلفة التي سكنوا فيها، مرد هذا الأمر كما أعتقد، وسببه هو أن عيسو امتلك عدة زوجات، وعلى هذا سكن الأولاد الذين أنجبهم من محلة ابنه إسماعيل وأخت نبايوت [تكوين: ٢٨/ ٩] في جبل سعير الذي هو قريب من برية فاران، وذلك في المنطقة نفسها التي سكن فيها ختنه، الذي نقرأ عنه في سفر التكوين: ٢١، بأنه صار رامياً، وسكن في برية فاران، فهناك — جاءنا الخبر — بأنه سكن مع ذريته، هذا وتزوج عيسو زوجات أخرى إلى جانب زوجاته الأول، كان من بينهن: أهو ليامة ابنة عني بنت صبعون الحوي، وكان هذا الحوي ابن كنعان، ومما لا شك فيه أنه سكن في منطقة بيسان في الجليل، على مقربة من جبال جلبوع، ليس بعيداً عن بحر الجليل، وعلى مقربة من هذا المكان نفسه هناك جبل سعير آخر، سكن فيه عيسو، في الوقت الذي كان يعقوب راجعاً فيه من بلاد الرافدين، وعلى هذا كان من السهل جداً عليه لقاء أخيه هناك، وذلك حسبما يشير النص، لأننا نقرأ في سفر التكوين: ٣٢، أنه بعدما ترك لابان، أخذ طريقه وقابل ملائكة الرب، وقال: «هذا جيش الرب»، وأطلق على ذلك المكان اسم محنايم، أي «المحلة»، (هذا المكان موجود في هذا اليوم عند سفح جبل جلعاد، في ديار سبط جاد)، ومن هناك بعث برسلك إلى أخيه، وقد عادوا إليه إلى هناك، وبناء عليه — كما قرأنا بعد — عزل جانباً بعضاً من قطعانه هدية إلى أخيه عيسو، وقد بعث بهذه الهدية مع رسله، وهكذا قرأنا: «فاجتازت الهدية قدامه. وأما هو فبات تلك الليلة في المحلة. (أي في محنايم) ثم قام في تلك الليلة وعبر مخاضة يسوق، (التي ما تزال مرئية هناك) وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر» الخ، وتتابع القراءة بأن «يعقوب دعا ذلك المكان باسم فنيئيل»، وما يزال هذا المكان قائماً حتى هذا اليوم على ضفتي مخاضة جدول يسوق، أيضاً في ديار سبط جاد، «وأشرق له الشمس إذ عبر فنيئيل»

وبعد هذا «ارفع يعقوب عينيه ونظر وإذا عيسو مقبل» الخ، وعلى هذا إننا نعرف الأماكن التي جاء عيسو إليه بها، وكلها على مقربة من جبل سعير، القائم وراء بحر الجليل.

وهناك أيضاً جبل سعير ثالث في منقلقة أشدود وعسقلان، التي وقعت حصّة لسبط يهوذا وقت اقتسام البلاد، لكن ما هو السبب في تسميته كذلك، إنني لا أتذكر أنني قرأت حول ذلك، غير أن السكان هناك يدعون باسم: أدوميين، مثلما دعي أبناء عيسو الآخرين باسم الأدوميين اشتقاقاً من اسم أدوم، ولهذا السبب أطلق على أنثباتر وابنه هيرود العسقلاني اسم الأدوميين.

ويكفي ما قيل عن هذا الموضوع.

ويوجد هذا الجبل في حصّة جاد في جبل جلعاد، في مقابل المكان الذي يخرج فيه نهر الأردن متدفقاً من بحر الجليل، وذلك ليس بعيداً عن جبل جلبوع، على مقربة من مدينة بيسان، ومن هناك نزولاً من الضفة الشرقية للأردن، توجد ديار سبطين ونصف سبط، وهي تمتد نزولاً حتى مراعي أرض مآب عند سفح جبل عبريم في شطيم في مقابل أريحا، وإذا ما تابعتنا السير نحو الجنوب على طول ضفة الأردن نفسها في بلاد مآب، نصل حتى البتراء في القفار، التي تعرف الآن باسم الكرك، ويأتي بعد هذا جزء من بلاد عمون، وذلك مسaire لجميع طول البحر الميت، مع الاحاطة بنهايته الجنوبية، وصولاً حتى جبل سعير، المتصل بيرية فاران، قرب قادش بارينا، حيث هناك على الطرف قفار سيناء والبحر الأحمر.

هنا بداية القسم الثاني من الربع الشرقي

٦ — في القسم الثاني من الربع الشرقي الذي يبدأ من عكا نحو الجنوب الشرقي، عندما يقطع الانسان أربعة فراسخ يصل إلى قانا

الجليل، حيث حوّل الرب الماء إلى نبيذ، وهذا المكان مرثي حتى هذا اليوم، حيث تقوم أجران الماء الستة، وغرفة الطعام حيث كانت المواد فيها.

هذا وإن جميع هذه الأماكن، مثلها في ذلك مثل جميع الأماكن الأخرى التي صنع فيها الرب أي عمل، هي موجودة تحت الأرض، ويمضي الانسان إليها بواسطة عدد كبير من الدرجات حيث يفضي إلى قبو، وهذا هو الوضع في موضع البشارة، والمهد، وفي قانا الجليل هذه، وفي أماكن أخرى كثيرة، كلها مشاهدة تحت الأرض، والسبب الوحيد الذي يمكنني أن أجده لهذا، مرده إلى التدمير المتتابع للكنائس التي بنيت فوق هذه المواضع، فقد سترت الخرائب بالأتربة التي تراكمت فوقها، وبعدها جرت تسوية الخرائب بلا عناية، تمت إقامة أبنية جديدة فوقها، وبناء عليه بات على المسيحيين الذين تشوقوا لزيارة هذه الأماكن، ورغبوا بالوصول إلى البقعة نفسها التي شهدت وقوع الحدث، أن يقوموا بأعمال تنظيف الأماكن هذه، وإقامة سلالم تقود نزولاً إليها، ولهذا السبب بدت غالبية هذه الأماكن على شكل أقبية، وإلى الشمال من قانا الجليل هناك جبل مرتفع وطويل، وعلى سفوح هذا الجبل تقوم هذه البلدة، وفي أسفل الجبل، يوجد على الجانب الجنوبي سهل جميل جداً، أطلق عليه يوسفيوس اسم سهل الكرمل (وادي الملك)، وهو يمتد بعيداً حتى الصفورية، وهو فائق الخصوبة والجمال.

وعلى بعد حوالي الفرسخين إلى الجنوب من قانا الجليل، وذلك على الطريق من الصفورية إلى طبرية، هناك قرية اسمها رومه (شمال المشهد) فيها يقال جرى دفن النبي يونه، وتقف هذه القرية تحت الجبل المقبل من الناصرة، ويجدها الوادي المتقدم ذكره، أي وادي الكرمل من الجانب الجنوبي.

وعلى بعد حوالي الفرسخ إلى الشرق من رومه هناك قرية واسعة،

يبدو أنها دعيت فيما مضى آبل — محولة، حيث نقرأ في سفر يودث بأن هولوفرنس قد قدم إليها عندما كان متوجهاً إلى بيت أوليا، ولا بد أنه فعل ذلك، فبسبب وعورة تلك الأماكن لم يكن متوفراً طريق آخر هناك، ومن المعتقد أن هذه القرية قد كانت موضع مسقط رأس النبي إيليا، وذلك حسبنا نقرأ في سفر الملوك الأول، وهي قائمة في المنطقة التي كان اسمها دوثنان، وذلك على بعد نصف فرسخ إلى الغرب من تلك القرية، ويوجد فيها عدد كبير من الأعمدة الرخامية، وخرائب كثيرة، وكلها يدلل على أنها كانت فيما مضى مدينة رائعة، وهي قائمة فوق مكان مرتفع وحصين.

وعلى بعد فرسخ واحد من آبل — محولة يقوم جبل بيت أوليا، حيث قتلت يودث هولوفرنس، ومن الممكن رؤية هذا الجبل من خلال الجليل كله تقريباً، وهو جبل فائق الجمال وحصين، وما زال عليه هناك كثيراً من البيوت وكثيراً من الخرائب، وعند نهاية هذا الجبل هناك قرية قد بنيت لحماية الجبل، وهناك آثار معسكر هولوفرنس موجودة حتى هذا اليوم في حقل قرب دوثنان، وهناك أيضاً الوادي الذي غسلت فيه يودث نفسها، وهو الذي عبرته في طريق عودتها إلى بيت أوليا، وقد تفحصت هذا كله بقدر ما أمكنني من دقة، لأنني أمضيت في دوثنان ليلة واحدة.

وعلى بعد فرسخين طويلين إلى الجنوب الشرقي من بيت أوليا، وذلك على شاطئ بحر الجليل، هناك مدينة طبرية الجليل الرائعة، التي من اسمها عرفت البحيرة وأطلق عليها اسمها أحياناً، وكانت هذه المدينة تعرف في العصور القديمة باسم جنسارث، ولهذا السبب ومن اسمها أطلق على هذا البحر اسم بحر جنسارث، لكنها مع الأيام، استولى عليها هيرود، طيطراخ الجليل، وأطلق عليها اسم طبرية تشریفاً للقيصر طايبيروس، وهي مدينة طويلة جداً، وقائمة فوق طرف طويل

من شاطئ البحر، وعند نهايتها الجنوبية هناك حمامات طيبة، وخرائب كثيرة، وتنمو هناك أشجار نخل عظيمة، وكروم عنب، وبساتين زيتون، والتربة هناك خصبة جداً.

واعلم أن المنطقة التي تعرف باسم منطقة المدن العشرة تنتهي عند مدينة طبرية هذه، وقد كتب اللورد جيمس دي فيتري، الذي كان بطريك القدس، ونائب كرسي روما، في كتابه الذي كتبه حول الاستيلاء على هذه المنطقة يقول مايلي: «إن حدود أونهايات بلاد المدن العشرة موجودة على البحر في الشرق، وصيدا الكبرى في الغرب، وبناء عليه كان هذا هو عرضها، أما طولها فيمتد من مدينة طبرية، وجميع الشاطئ الشمالي لبحر الجليل حتى دمشق، وعرفت باسم المدن العشرة صدوراً عن المدن الرئيسية الموجودة هناك، وهي: طبرية، وصيد، وقادش، ونفتالي، وحاصورة، وقيسارية فيليب، وكفر ناحوم (التي يدعوها يوسفوس باسم جوليا) ولوتاباتا، وبيت صيدا، وكورزين، ويسان، التي كان اسمها أيضاً سكيذوبولس، هذا وهناك مدن أخرى كثيرة إلى جانب هذه المدن.

ولنلاحظ على كل حال، أن هذه البلاد قد عرفت بأسماء مختلفة حتى هذا اليوم، وكما تقدم القول عرفت أحياناً باسم الايطورية، وأحياناً أخرى باسم بلاد الراحوب، وأحياناً باسم كابول، وهي كلها واحد، والمنطقة نفسها، ومع أنها دعيت بأسماء عديدة ومتنوعة، هي لا تتجاوز رحلة سفر يوم واحد في الطول، أو في العرض، كما أنني لا أظن أنها طويلة كثيراً في عرضها، لكن فيما وراء بلاد صيدا، والجبال التي بيننا وبين المسلمين الذين يعرفون باسم البقاعية، وأيضاً الذين يسكنون حول ممر الكلب، تقوم الايطورية الأصيلة، وذلك في واد اسمه وادي البقاع، وبسبب طوله، نجده يمتد حتى سفح جبل لبنان، ويعرف باسم غابة لبنان.

وفي عودة من طبرية، وعلى مسافة ستة فراسخ نحو الغرب، وفرسخين إلى جنوب قانا الجليل توجد صفورية، وهي بلدة جميلة جداً مع قلعة موجودة فوقها، ويقال بأن يواكيم، والد العذراء المباركة قد ولد هناك، وهي قائمة في ديار سبط آشر، على مقربة من وادي الكرمل.

وعلى مسافة فرسخين إلى الجنوب من الصفورية، أو بالحري باتجاه الشرق، توجد الناصرة، التي هي المدينة المباركة للجليل، حيث كان فيها فرع من أبناء يسي، فبعدهما تلقت التحية من الروح القدس، حملت في رحمها المبارك يسوعاً المسيح، وتبعد الناصرة سبعة فراسخ عن عكا، وفيها مايزال موجوداً المكان حيث جلب الملاك جبرائيل بشارة الخلاص إلى العذراء المباركة قائلاً: «حيث أيتها المليئة بالنعمة، الرب معك، بوركت أنت من بين النساء»، وقد رثلتُ هناك عدداً من القديسات، وكان بعضها حتى في اليوم نفسه، أعني يوم البشارة المقدسة، وذلك عندما صار الرب جسداً، ليبارك اسم الرب يسوع المسيح، إلى الأبد، وإلى الأبد.

وهناك ثلاثة مذابح في البيعة، التي نحتت من قلب الصخر، مثلها في ذلك مثل مكان الولادة، والآلام والقيامة، وفي القديم جرى نحت الجزء الأكبر من الناصرة من الصخر، وهذا ما يمكن رؤيته في هذا اليوم، ومايزال حتى هذا اليوم الكنيس قائم هناك، بعدما جرى تحويله الآن إلى كنيسة، وهو الذي عندما كان يسوع يعلم فيه، قرأ من سفر إشعيا النبي، وذلك لدى مناولته إياه، والذي قرأه هو: «روح الرب فوقني، لأن الرب مسحني» الخ، فضلاً عن هذا يوجد عند نهاية المدينة، في كنيسة جبرائيل، جب، هو مبجل من قبل السكان، حيث يقال: غالباً ما قام الطفل يسوع بنضح الماء منه عندما كان يُخدم أمه.

وعلى بعد مسافة أربع رميات سهم، إلى الجنوب من المدينة يوجد المكان المعروف باسم «قفزة الرب»، وذلك حيث أرادوا رمي يسوع نحو

الأسفل، غير أنه مرّ من بين أيديهم، وشوهد فجأة — حسب ما مرئي هناك — على طرف الجبل، على مسافة رمية سهم، ومن الممكن أن يرى الانسان هناك على الصخرة طبعة ملاحه وملابسه، ويمكن للانسان أن يرى من ذلك الجبل، جبل الطور، وراية حرمون الصغيرة (جبل النبي ضاحي)، وقرى: عين دور، ونين، ويزرعيل، ورؤية كل ما حواه سهل ابن عامر.

وعلى بعد فرسخين من الناصرة، باتجاه الشرق، هناك جبل الطور، حيث تحول شكل الرب، وهناك من الممكن حتى الآن رؤية خرائب ثلاث بيوع، أو مزارات، كانت قد بنيت تنفيذاً لرغبة بطرس، وفضلاً عن هذا هناك خرائب على غاية من العظمة هناك، تشمل أماكن، وأبراج، وأبنية عادية، هي الآن أماكن مأوى للأسود وللحيونات الضارية، وعلى هذا يتوفر هناك مكان للصيد الملكي، والجبل صعب التسلق، وهو شاهق الارتفاع، وهو موثم لبناء قلعة عليه.

ويوجد على سفحه، على الجانب الجنوبي، هناك مقابل قرية عين دور، وذلك إلى جانب الطريق الذي يقود من سورية إلى مصر، يوجد المكان الذي يقال بأن ملكصادق قابل فيه إبراهيم، وذلك لدى عودته من القتال ضد الملوك الأربعة قرب دمشق، وعند سفحه، في الجهة الغربية، في مواجهة الناصرة، هناك بيعة بنيت في المكان الذي قال الرب فيه لحوارييه، لدى نزوله من الجبل: «لا تخبروا أحداً بالذي رأيتموه»، ومن سفحه في الشرق يجري جدول قيشون، وذلك حيث قاتل باراق ضد سيسرا، وغلبه، وأرغمه على الفرار، ويتشكل هذا الجدول من مياه جبلي الطور، وحرمون، وتجري هذه المياه باتجاه بحر الجليل، وتصب على مقربة من قلعة كوكب الهوا (بلفيور Belvior)، التي هي من ممتلكات فرسان مشفى القديس يوحنا.

وعلى مسافة فرسخ واحد إلى الشرق من جبل الطور، توجد قرية

عين دور، القائمة على هضبة حرمون الصغيرة (كذا)، وهذه الحرمونية ليست جبلاً مستقلاً بذاته، بل كتلة مرتفعة من الأرض، نازلة من جبل حرمون، وهي باتجاه جبل الطور وملتصقة به، وفوقها تقوم قرية عين دور، حيث نقرأ في المزمور: «بادوا في عين دور» [مزمور: ٨٣ / ١٠]، وسكنت في هذه القرية المرأة التي كانت صاحبة جان، والتي لدى حادثة شاؤول أصعدت صموئيل، وذلك حسبنا نقرأ في سفر صموئيل [الأول: ٢٨ / ٧ - ١٨]، و صموئيل يرقد الآن مدفوناً في راماثيم — زوفيم، الموجودة على مسافة سفر يومين من ذلك المكان.

وعلى بعد فرسخين من الناصرة، وأكثر من فرسخ واحد عن جبل الطور، توجد رابية حرمون الصغيرة، الموجود على طرفها الشمالي مدينة نين، التي أقام الرب أمام بابها ابن الأرملة من الموت.

ويبلغ طول هذا الجبل وامتداده أربعة فراسخ في مقابل بحر الجليل، وينتهي ليس بعيداً عن المكان الذي يتدفق فيه نهر الأردن خارجاً من بحر الجليل.

هنا بداية القسم الثالث من الربع الثالث

٧ — في القسم الثالث من الربع الثالث، الذي يسير باتجاه الجنوب، إن المكان الذي يصادفه الانسان بعد مغادرته لعكا، هو الجزء الأول من جبل الكرمل، وذلك على بعد مسافة أربعة فراسخ من عكا، وهنا يوجد المكان الذي قتل فيه النبي إيليا كهنة بعل، عند جدول قيشون، وذلك حسبنا نقرأ في سفر الملوك الأول: ١٨ / ٤٠، وعلى بعد مسافة قصيرة يصب جدول قدرون في البحر المتوسط، وذلك على مسافة فرسخ واحد عن مدينة حيفا، إنما على بعد حوالي الثلاثة فراسخ عن مدينة عكا.

وفيما يتعلق بجدول قيشون هذا، يلاحظ أنه وإن بدا في الحقيقة أنه جدول واحد، وهكذا جرى الكلام عنه أنه واحد، مع ذلك ينبغي عدّه

مزدوجاً، لأنه يجري باتجاهين، فالفرع الأول منه يجري باتجاه الشرق ليصب في بحر الجليل، ويجري الفرع الآخر باتجاه الغرب ليصب في البحر المتوسط، ويقوم هذا المجرى المزدوج من جبلي الطور وحرمون، لأنها ليسا بعيدان عن بعضهما بعضاً، وكل واحد منهما له رابية قد أرسلها باتجاه الآخر، وعلى هذا بدا الجبلان وكأنهما متصلان أحدهما بالآخر عند السفح، والرابية هي أعلى من جانب جبل حرمون، وهي تعرف باسم الحرمونية، وقد تقدمت الإشارة إليها، فعليها تقوم قرية عين دور، وتعيق هذه الرابية مياه الأمطار التي تتساقط على كل واحد من الجبلين، والتي تجري نازلة بالاتجاه نفسه، لكن شطراً منها يجري باتجاه الشرق، ويصب في بحر الجليل، ليس بعيداً عن مدينة بيسان، وعند جدول قيشون هذا تحارب باراق مع سيسرا، وذلك حسبما قرأنا في سفر القضاة: O، ويجري الشطر الآخر باتجاه الغرب ليصب في البحر المتوسط، وعند فرع قيشون هذا قتل إيليا كهنة بعل، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٨/ ٤٠، وهو الشطر الذي يجري باتجاه الغرب وترفده مياه من جبل عفريم والمناطق المجاورة له في السامرة، ومن جميع بقاع سهل ابن عامر، وجبل قابيل، ومجيدو، [في عزوبة قرب التعنه].

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من المكان الذي قتل فيه كهنة بعل، تقوم القلعة المبنية فوق جبل قابيل، واسمها تل كمون، وفي نهاية جبل الكرم تماماً، هناك المكان الذي قتل فيه لامخ قابيل حين رماه بسهم، وذلك حسبما جاء الخبر في سفر التكوين: ٢٣/ ٤، قوله: «فإني قتلت رجلاً لجرحي».

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من جبل قابيل، توجد مجيدو، التي اسمها في هذه الأيام سبورب Suburbe ، فهناك مات أحازيا ملك يهوذا، الذي أصابه ياهو ملك إسرائيل بوساطة سهم، ورماه في حصة حقل نابوت اليزرعيلي، وفي مجيدو هذه نفسها جرى قتل يوشع

ملك يهوذا من قبل فرعون ملك مصر، عندما كان زاحفاً نحو نهر الفرات.

واعرف هنا أن حقل مجيدو، وسهل ابن عامر، وسهل الجليل هم واحد والشيء نفسه، وكل هذه الأسماء قد زالت من الوجود، وهي الآن تعرف باسم سهل الفابا(الفولة) الذي يقوم على بعد ثلاث رميات سهم عن مدينة أفيق، ولكن في الحقيقة الكاملة أن هذا هو سهل الجليل الذي يحده من الشرق بحر الجليل والأردن، ومن الجنوب جبل عفريم والسامرة، ومن الغرب جزئياً من قبل جبل الكرمل، ومن الشمال بحر فينيقيا ولبنان، ويبدو أن طول هذا السهل هو عشرة فراسخ، وعرضه ستة فراسخ أو أكثر، وهو في بعض الأماكن خصب جداً بالقمح، والزيت، والخمرة، ومليء بجميع الأشياء الجيدة في العالم، وبناء عليه لا أعتقد أنني رأيت قط أرضاً أفضل، لولا أن مساوئنا وذنوبنا حالت دون زراعتها من قبل الصليبيين.

وعلى بعد أكثر من فرسخين إلى الشرق من جبل قابيل توجد قرية المزرعة(قرب الفولة) وهي قائمة على شاطئ جدول قيشون، وذلك على بعد فرسخ واحد من سفح جبل حرمون.

وعلى بعد فرسخ إلى الجنوب من المزرعة تقوم قلعة اسمها قلعة الفولة، وعلى الطرف الغربي وعلى بعد ثلاث رميات سهم، وذلك على جهة اليمين من طريق يزرعيل، من الممكن رؤية خرائب مدينة أفيق، فهناك قاتل السوريون ضد أخاب، ملك إسرائيل، وقالوا في ذلك الحين: «إن آلهتهم آلهة جبال.... وإذا حاربناهم في السهل فإننا نقوى عليهم»(الملوك الأول: ٢٠/٢٣).

وعلى بعد فرسخ إلى الشرق من أفيق، وذلك على الجهة اليسارية من الطريق إلى يزرعيل، وعلى الجهة الجنوبية من جبل حرمون، يمكن

للإنسان أن يرى مدينة شونيم (سولم إلى الشرق من الفولة)، فإلى هناك غالباً ما ذهب إيليا عندما كان على طريقه من الكرمل إلى الجلجال، أو الأردن، لأن هذا الطريق كان الطريق الأقل وعورة وارتفاعاً بالنسبة له عندما كان يريد الذهاب إلى أريحا، حيث أقام مع أبناء الأنبياء، وكان يذهب من الكرمل، أي أن تقول من خلال شونيم إلى بيسان، ومن هناك على طول سهل الأردن إلى الجلجال، ولهذا نقرأ في سفر الملوك الثاني: ٨/٤، كيف أنه احتاج كلما ذهب إلى الأردن إلى المرور بشونيم، ولهذا اعتاد على الإقامة مع المرأة الشونيمية، وحدث أنه من هذه المدينة نفسها، جاءت إليه هذه المرأة ذاتها عندما توفي ولدها، جاءت إليه إلى الكرمل، التي تبعد مسافة أربعة فراسخ عن ذلك المكان، وقام إيليا بإقامة ولدها من الموت، وهنا نصب الفلسطينيون معسكرهم عندما جاء شأؤول من جلبوع، ومن مدينة شونيم هذه جاءت أيشاغ - Ab- ishag الشونيمية التي رعت الملك داوود العجوز، واحتضنته ومددته على صدرها.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من شونيم، أو بالحري إلى الجنوب الشرقي، تقوم مدينة بيسان، الموجودة بين جبل جلبوع والأردن، إنما على بعد نصف فرسخ عن الأردن، فعلى أسوارها علق الفلسطينيون جثث شأؤول وأولاده بعدما قتلوهم على جبل جلبوع، وكانت بيسان هذه تعرف من قبل باسم سكيـزوبولس، وذلك حسبما أخبرنا يوسفيوس، لكن الناس جميعاً يدعونها الآن باسم بيسان، وهي موقع فائق الجمال والبهاء.

وفوقها، على الجانب الغربي، يقوم جبل جلبوع، الذي يمتد حتى يزرعيل، وذلك على بعد فرسخين نحو الغرب.

وعلى بعد فرسخين إلى الغرب من بيسان هناك ينابيع، ونبع عظيم على فرسخين فوق بيسان، وهذا هو «النبع الموجود في يزرعيل» [عين

جالوت دون يزرعيل إلى الشرق]، الذي ورد ذكره في صموئيل الأول: ٢٩/١، حيث ضرب الفلسطينيين مخيمهم، عندما كانوا في جلبوع، بين ذلك النبع وبيسان.

وعلى مسافة قريبة، هي حوالي رميتي سهم، عن ذلك النبع، توجد مدينة يزرعيل (زرعين)، وهي قائمة فوق رابية مرتفعة بعض الشيء، وقد كانت فيما مضى إحدى المدن الملكية في إسرائيل، لكن في هذه الأيام ليس فيها أكثر من ثلاثين بيتاً، واسمها الآن الذي تدعى به هو زرعين، وهي قائمة عند سفح جبل جلبوع، على الجهة الغربية منه، وتبعد عن مدينة شونيم فرسخين قصيرين، وشونيم قائمة إلى الشمال منها، وذلك على الطرف الجنوبي من جبل حرمون.

وهذان الجبلان — أعني جبل حرمون وجبل جلبوع — متوضعان بشكل جاء فيه موقع جبل جلبوع إلى الجنوب منها، وحرمون إلى الشمال منها، مع وجود فراغ بينهما قدره فرسخين قصار، وهما يمتدان طولياً من الشرق إلى الغرب، وكلاهما ينتهي في الشرق عند الأردن، وطولهما فرسخان أو أكثر.

وفيا بينهما جرت معارك كبيرة، فهنا قاتل جدعون ضد مدين، وقاتل شاول ضد الفلسطينيين، وأخاب ضد السوريين، وفي الأيام الحالية قاتل التتار ضد المسلمين هناك.

[وليلاحظ فيما يتعلق بجبل حرمون هذا، أن هناك جبلاً آخر يحمل الاسم نفسه، يقع وراء الطرخونية، وعلى مقربة من جبل سنير، وهو أعظم بكثير وأعلى من هذا الجبل، وفي كثير من الأماكن من الكتابات المقدسة، الإشارة إلى حرمون هذا وليس إلى حرمون [الصغير] ذاك.

وفي السهل فيما بين هذين الجبلين يبدأ الوادي الذي يعرف باسم «الوادي المشرق» [موره أو وادي يزرعيل]، وذلك بسبب جماله

وخصبته، وهو يمتد من ذلك المكان مسائراً نهر الأردن نزولاً حتى البحر الميت، وقبل أن يدمر الرب سدوم وعموره، كان هذا الوادي المشرق «مروياً بشكل جيد في كل مكان، وكأنه بستان الرب، وذلك مثل أرض مصر»، فهذا ما نقرأه في سفر التكوين: ١٣/ ١٠.

ومن يزرعيل هناك مشهد جميل يغطي جميع الجليل، حتى الكرمل، وجبال فينيقية، وجبل الطور، وجبل جلعاد، والمناطق الواقعة عبر الأردن، وجميع جبل إفرايم حتى الكرمل.

ويسائر الطريق من جبل جلعاد إلى يزرعيل، الطرف الجنوبي من جبل جلبوع، وذلك من الأردن، ويمر عبر عين نون وساليم [يوحنا: ٣/ ٢٣]، حيث أجرى يوحنا التعميد، وحدث أيضاً أنه عبر هذا الطريق جاء ياهو من راموت جلعاد (الملوك الثاني: ١٧/ ٩)، عندما قال الرقيب: «إني أرى جماعة الخ، وليس صحيحاً ما يقوله بعضهم من أنه لا الندى ولا المطر يتساقط على جبال جلبوع، لأنني عندما كنت هناك في يوم عيد القديس مارتن [١١ - تشرين ثاني] تساقطت الأمطار حتى تبللت ثيابي كلها ووصل البلل إلى الجسد، فضلاً عن هذا امتلأ الوادي بمياه تلك الأمطار، ومع هذا صحيح هناك بعض الأماكن في هذه الجبال هي صخرية، وجافة، وجرداء، مثل بقية جبال إسرائيل.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من يزرعيل توجد عين جنيم (جنين)، وهي بلدة كانت فيما مضى مسورة، لكن أسوارها قد تداعت، وهي قائمة عند سفح جبل إفرايم، وتنتهي عند هذه البلدة منطقة الجليل، وتبدأ منطقة السامرة، وتقع جنين على بعد حوالي السبعة فراسخ إلى الغرب من الأردن.

وتُحد هذه المنطقة من الجنوب ببلاد تَمون [إلى الشمال - الشرقي من شكيم]، التي فيها جبال مرتفعة جداً.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من مدينة جنين تقوم مدينة سبسطية، التي عرفت فيما مضى باسم السامرة، وذلك عندما كانت عاصمة لمملكة الأسباط العشرة، التي عرفت باسم إسرائيل، وجعلتها ذنوبها لا تمتلك ما يساوي مقدار بيت واحد، لكن هناك كنيسة بنينا على شرف القديس يوحنا المعمدان، ولقد قام المسلمون بتحويل واحدة من هاتين الكنيستين إلى مسجد، وكانت تلك التي كانت هي الكنيسة الرئيسية، وكانت فيما مضى كاتدرائية الأسقف، وفعلا هذا بشكل خاص بضريح يوحنا المعمدان نفسه، الذي كان معمولا من الرخام، ويشبه ضريح الرب، ذلك أنه رقد مدفوناً هناك بين إيليا وعويدا، وتقوم هذه الكنيسة على طرف الجبل، في المكان الذي ينحدر الانسان منه وينزل، ويقدر المسلمون القديس يوحنا المعمدان تقديراً عظيماً، ومكانته لديهم هي التالية لمكانة المسيح والعدراء المباركة، وهم يولونه اهتماماً عظيماً، وهم عن حق يعلنون بأن المسيح هو كلمة الله، لكنهم يقولون إنه ليس رباً، وهم يقولون بأن العدراء المباركة قد حملت من روح القدس، وقد حملت به كعدراء وبقيت عدراء، وهم يقولون بأن يحيى كان نبياً عظيماً وفائق القداسة، ويقولون أيضاً بأن محمداً (ﷺ) كان رسول الله، وقد أرسل من قبله لهم فقط، وقد قرأت شخصياً هذا في القرآن [الكريم] الذي هو كتاب شريعتهم.

وتقف الكنيسة الثانية على حافة الراية، وذلك حيث قام قصر الملك فيما مضى، ويقطن هناك رهبان إغريق، ومسيحيون، استقبلوني بلطف، وأعطوني طعاماً، وأراني أولئك الإغريق أنفسهم في تلك الكنيسة، المكان الذي قالوا بأن يوحنا قد سجن فيه، ثم قتل فيه صبراً، وهذا ما بينت أنه خطأ جسيم، لأن المؤرخين، ويوسفوس، وحكايات القديسين، وكاتب التواريخ، والتاريخ اللاهوتي، كلهم مجمعون على القول بأنه قتل صبراً في مخرونتا Macherunta [مخور شرقي البحر الميت]، التي

تعرف الآن باسم هيلون Haylon ، عبر الأردن، زيادة على هذا، كان هيرود الذي أعدم يوحنا طيطراخ الجليل، والبلاد الواقعة عبر النهر، وهي بلاد جلعاد، أو بالحري بلاد السبطين، ولم تكن له سلطة في السامرة، التي كانت تحت إدارة بيلايطس، وذلك حتى القدس، أو اليهودية، وبناء عليه لم يكن بإمكانه لاسجن يوحنا ولا إعدامه، لأنه لم تكن لديه سلطة هناك، لكن بعد إعدامه في مخرونتا — كما قلنا من قبل — دفن جسده في السامرة من قبل حواريه، بين النبيين المتقدمي الذكر، غير أن رأسه قد دفن في القدس، هذا ولم أشهد في أي مكان من الأرض المقدسة خرائب عظيمة مثل التي في السامرة، فهناك رأيت خرائب كبيرة جداً، ووضع هذه المدينة لايوافق مع ما ذهب إليه كاتب التواريخ، في تعليقه على قول النص التالي: «هكذا تفعل بي الآلهة، وهكذا تزيدني، إن كان تراب السامرة يكفي قبضات لكل الشعب الذي يتبعني» [الملوك الأول: ٢٠ / ١٠]، ويبدو أنه قد خيل إليه أن أسوار المدينة وقمة الجبل كانا على ارتفاع واحد، وأن الأبنية قد شيدت فوق القمة، لكن الحال لم يكن كذلك، لأن أسوار المدينة كانت عند سفح الجبل، وكانت حصينة ومدعمة بأبراج فائقة الحصانة، وكان الجبل في داخلها، ويرتفع بشكل تدريجي، وقد انتشرت عليه الأبنية وتوزعت مثلها في ذلك مثل عنقود من العنب، وكانت الأبنية مرتفعة إلى درجة قاربت فيها القمة، وكان القصر على قمة الجبل، وكان فائق الجمال، ومن الممكن أن يشاهد حتى هذا اليوم كثيراً من الأعمدة الرخامية التي دعمت أماكنه وأروقته، وحول الجبل كله، وتحت القصر، ودون بيوت الأعيان، وفي موقع الساحة العامة، أو السوق للبيع والشراء، يجد الانسان حتى في هذه الأيام، من حول الجبل كله، أعمدة رخامية واقفة في داخل الأسوار، وكانت هذه الأعمدة، فيما مضى، تدعم قناطر الشوارع، لأن شوارع هذه المدينة كانت مقنطرة، وفقاً لعادات الأرض المقدسة، وباختصار ليس لدي المزيد لأقوله حول هذه المدينة، التي

أصبحت الآن في حالة بائسة، حيث غدت في الحقيقة حديقة للأعشاب، مثلما أراد أخاب ملكها، وطلب أن يعمل كرم نابوت اليزرعيلي، لأنه كان قريباً من بيته [الملوك الأول: ٢١/٢]، وفي الحقيقة، تحول في هذه الأيام، بسبب قضاء الرب العدل، ليس ذلك الكرم، بل قصر الملك نفسه أيضاً، إلى حديقة أعشاب، وكان وضع هذه المدينة وضعاً رائعاً للغاية، حيث منها من الممكن رؤية البحر قرب يافا، حتى رأس العين، وقيسارية فلسطين، وعبر كل جبال إفرائيم إلى رامات — زوفيم، وإلى الكرمل بوساطة البحر قرب عكا، وهو مليء بالينابيع، والحدائق، والكروم، وجميع الأشياء الجيدة التي يطلبها الانسان في هذا العالم.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من السامرة، تقوم مدينة تيرزه -Ti- razah (لعلها التياسير إلى الشمال الشرقي من شكيم) فوق رابية عالية، وقد حكم هنا ملوك إسرائيل لبعض الوقت قبل بناء السامرة، وقد كانت في حصة سبط منشا.

وعلى بعد ستة فراسخ إلى الشرق من تيرزه، وعلى الطريق الذي يقود إلى الأردن، تقوم بلاد تفوه Tappuah [عين تفوح]، التي تحتوي على عدد من الجبال، بينها جبل مرتفع جداً، وكان هذا أيضاً في حصة منشا، ويمتد حتى سهول الأردن عبر مواجهة مخرونتا (مخور شرقي البحر الميت).

وعلى بعد فرسخين جنوبي السامرة، وذلك قرب الطريق الذي يقود إلى شكيم وعلى الجهة اليمنى لجبل مرتفع، يقوم جبل بيت إيل (بيتين)، الذي عليه وضع يربعام بن نبط، ونصب العجلين الذهبيين، مما جعل إسرائيل تقع في الاثم، ويصحف المسلمون اسم هذا الموقع، ويدعوونه بوثيل Bothil لأنهم لا يقدرّون على تلفظ كلمة بيت إيل.

ويوجد على بعد نصف فرسخ من هناك، وذلك على الجانب الأيسر

من الطريق، جبل أكثر ارتفاعاً من الأول، ويدعى هذا الجبل باسم دان، وهو قائم فوق مدينة شكيم، ويقول بعضهم بأن العجل الذهبي الآخر قد نصب هناك فوقه، هذا ويقول بعض آخر بأنه نصب في مدينة دان، التي اسمها الآن بلنياس، أو قيسارية فيليب، ويبدو أن هذا بالحري ما قصده جيروم، ويمكن للإنسان أن يختار ما يرضيه، والذي هو على كل حال مؤكد، أن هذا الجبل، عرف باسم جبل دان.

وتقوم بين هذين الجبلين مدينة شكيم، التي اسمها الآن نابلس، وهي مدينة فائقة الجمال، وملئمة بالأشياء الجيدة، لكنها غير محصنة، كما أنه من غير الممكن تحصينها بأية وسيلة من الوسائل، وكل ما يمكن للسكان أن يفعلوه هو أنه إذا جاء عدو إلى أول البابين، القيام بالهرب إلى الباب الآخر، وذلك إذا كانوا أقل عدداً: لأن المدينة قائمة في واد بين جبلين عالين جداً، ولذلك يمكن لأي إنسان أن يرميها بالحجارة بيده.

وعلى بعد حوالي رميتي سهم من بابها الجنوبي، يوجد جب يعقوب، وذلك إلى جانب الطريق الذي يقود إلى القدس، وهنا يوجد مقعد يعقوب، وذلك حين جلس إلى جانب الجب، وسأل المرأة السامرية أن تعطيه شربة ماء.

وفوق هذا الجب، على جهة اليمين، يوجد جبل مرتفع له قمتين، تعرف أولاهما باسم جبل جرزيم، وتعرف الأخرى باسم جبل عيبال، وقد بنى يوشع مذبحاً على جبل جرزيم، وكتب سفر التثنية (؟) ووقفوا يباركون ويلعنون، ويحييون من جبل إلى آخر، وذلك حسبما أمروا في سفر التثنية: ٢٧، ويشاهد فوق جبل جرزيم هناك في هذه الأيام هيكل قديم جداً، كان قد بناه سنبلات Sanballat، حاكم المنطقة الواقعة عبر الأردن، تكريباً لجوبتير أوليوس، وجعله شبيهاً بالهيكل الموجود في القدس، وقد بناه من أجل صهره منسّه، الذي أراد أن يكون كاهناً أعلى، وما يزال هذا الهيكل قائماً هناك، حتى أيام الدمار الذي قام به

الرومان، وآثاره وخرائبه ماتزال مرئية حتى هذا اليوم، ومن المعتقد أن هذا الجبل وهذا الهيكل هو ما عنته المرأة السامرية وأشارت إليه، عندما قالت للرب: «أباؤنا سجدوا في هذا الجبل» [يوحنا: ٤/ ٢٠].

ويوجد على جهة اليسار لهذا الجب بلدة كبيرة، غير أنها خرائب ، وهي التي أعتقد أنها كانت شكيم القديمة، لأنه يوجد هناك خرائب عظيمة جداً لقصور رخامية، وأعمدة تستحق الإعجاب، واقفة على بعد رميتي سهم من جب يعقوب، ومكان الاستراحة، وذلك فوق موقع جميل جداً، سوى أنها بدون ماء، هذا وإنني لم أشاهد قط مثل هذه البقعة بخصبها وغناها، وهي تبعد رميتي سهم عن المدينة، التي اسمها نابلس، وإنني أعتقد أن نابلس هذه قد كانت بلدة تاباص (طوباس)، ويقع إلى جانب هذا الجب قطعة الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابنه يوسف، خصيصاً له دون إخوته [يوحنا: ٤/ ٥]، وإنها طويلة وخصبة، وهي في الحقيقة واد جميل جداً، وأنا لا أعرف أي واد آخر مساوياً له في غناه.

وفي شكيم دفنت عظام يوسف، وقد جلبت إلى هناك من مصر.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من شكيم، قرب الطريق، وعلى جهتك اليمنى وأنت ذاهب إلى القدس، تقع قرية لبنة (خان لبّين)، وهي موضع جميل جداً، وهناك لبنة أخرى في ديار سبط يهوذا، لكن هذه كانت موجودة في ديار سبط إفرايم.

وعلى بعد خمسة فراسخ إلى الجنوب من لبنة توجد بلدة مخماس، وهي بلدة واسعة نسيياً، وقد كانت تشكل حدود ديار سبط إفرايم باتجاه الجنوب، واسمها الآن البيرة (وهم) وكانت فيما مضى من أيام ملكاً لفرسان الداوية، وعلى مقربة من طرفها الجنوبي، تقوم الحدود بين ديار سبط إفرايم، وديار سبط بنيامين.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الجنوب من خماس توجد جبعة شاؤول، حيث جرى إغضاب زوجة اللاوي التي جاءت من بيت لحم، ومن أجل هذه الفعلة جرى تدمير تقريباً كل سبط بنيامين، وقد كانت مسقط رأس شاؤول بن قيس، الذي كان أول ملك لإسرائيل.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الجنوب من جبعة، تقوم قرية (رامه) الرام، وهي قائمة فوق رابية، وذلك ليس بعيداً عن طرف الطريق، وذلك على جهة اليسار، وأنت ذاهب إلى القدس، ومن المعتقد أن إرميا قصد هذا المكان بقوله: «سمع صوت في رامه».

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من رام، تقوم مدينة القدس الرائعة، التي لن أقول عنها هنا شيئاً، لأنني أرغب بالعودة إلى شكيم، وسوف أذكر أولاً المدن القائمة عند زاوية جبل إفرايم، وأوقف وصفي حيث أتجاوزها.

واعرف على كل حال أن هناك كثيراً من القرى في الأرض المقدسة اسمها رامه، واحدة منها قرب تقوع، على الطريق من هناك إلى حبرون، وأخرى في ديار سبط نفتالي، والثالثة ليست بعيدة عن قلعة صفد، والرابعة هي شيلوه، التي تعرف أيضاً باسم رامه، وفسر اسم رامه بأنه يعني «ارتفاع»، وفي الحقيقة تقوم جميع هذه القرى فوق هضاب مرتفعة جداً.

والآن، إذا ما مضى الانسان جنوباً (كذا) من شكيم باتجاه الأردن، فإن المكان الأول الذي سوف يلقاه هو إيمون (كفرعانا إلى الشمال من بيت إيل) (كفر العموني) [يشوع: ١٩/ ٢٤]، وهي بلدة جيدة جداً، قائمة في مكان جميل، فيه وفرة من جميع سلع الدنيا، وقد كانت في حصّة سبط إفرايم.

وعلى بعد أربعة فراسخ من إيمون، لدى نزولك من جبل إفرايم،

على السهل، وعلى بعد فرسخين عن الأردن، توجد قرية الفصيل -Phe
sech، وذلك عند المكان الذي يجري فيه جدول كيرث -Che
rith لدى نزوله من الجبل، وهنا أقام إيليا عندما جلبت الصقور
الطعام له في الصباح وفي المساء.

وعلى بعد فرسخ واحد من الفصيل، على جهة اليسار، باتجاه بلاد
تفوه، توجد قلعة عين دوك Docus، حيث قتل بطليموس بن
أبوبوس، سمعان المكابي بشكل خياني، ويستطيع الانسان من هذا المكان
أن يرى بوضوح بلاد جلعاد، وبلاد السبطين ونصف السبط، وبلاد
هشبون والمنطقة المرتفعة لبلاد مآب، وجبال عبريم، وفسغه، ونبو.

ومن هناك ينزل الانسان إلى سهل الأردن، ويمتد هذا السهل حتى
أريحا، وعبرها، طوال الطريق نزولاً مع الأردن حتى البحر المالح،
ويقوم جبل عبريم، وفيغير Pheger، وفسغه مباشرة في مواجهة
هذا المكان، وذلك عبر الأردن، وعليك أن تعرف أيضاً أن نهر الأردن
يملك سهولاً جميلة على ضفتيه، وذلك امتداداً من منابعه عند سفح
جبل لبنان حتى بركة فاران، بطول حوالي مائة ميل وأكثر، فضلاً عن
هذا، هناك فوق هذه السهول نفسها جبال عالية جداً، على كلا الجانبين،
ممتدة حتى البحر الأحمر.

وعلى بعد خمسة فراسخ باتجاه الجنوب، لكن مع انحراف قليل نحو
الشرق من فسغه، يقوم موقع الجلجال، حيث أقام بنو إسرائيل
معسكرين لمدة طويلة، بعد عبور الأردن، وهناك جرى ختن بعضهم.

وعلى بعد نصف فرسخ عن الجلجال، على الطريق إلى أريحا، وذلك
على جهة اليمين من الطريق، هناك جبل يدعى جبل القرنطل، فهناك
صام الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة، وهو جبل مرتفع جداً، وصعب
التسلق، وقد أغوي على جبل آخر، يبعد ثلاثة فراسخ عن هذا الجبل،

وهو قائم في القفار، على الجانب الجنوبي لبيت ايل وعاي.

وعلى بعد حوالي الرميّتي سهم تحت القرنطل، ينبع نبع إيليا[رأس العين]، وتتدفق مياهه وتسير، وهي المياه التي عاجلها إيليا، لأنها كانت مالحة، وعقيمة، ويمرّ هذا الجدول قرب الجلجال، على الجانب الجنوبي، ويدير طواحين كبيرة، ويتوزع بعد هذا على عدة أقنية، ويسقي قصب السكر، والحدايق والبساتين حتى أريحا، وماوراء أريحا، ثم يصب في الأردن.

وعلى مقربة من الجلجال، وعلى بعد نصف فرسخ إلى الجنوب، يوجد وادي عكور (وادي القلط) وذلك عند سفح جبل، وفي هذا الوادي جرى رجم عاخان، لأنه سرق أشياء ملعونة.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشرق من الجلجال تقوم أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة مجيدة، في حين لا يوجد فيها الآن أكثر من ثمانية بيوت، ويوجد هناك آثار قريّة بائسة، هذا وقد جرى هناك تدمير جميع الأوابد والأماكن المقدسة، تدميراً كاملاً.

ويوجد على بعد فرسخين من أريحا، إلى جانب الأردن، بيعة[قصر اليهود]، التي بنيت على شرف القديس يوحنا المعمدان، وذلك فوق البقعة التي من المعتقد أن تعميد الرب قد جرى فوقها، ومع هذا يرى بعضهم بأن التعميد كان في ساليم[يوحنا: ٣/٢٣]، غير أن التقاليد الكنسية تنكر هذا.

هذا وإن الذي حدث في أريحا معروف كثيراً، ولهذا لأرى تدوينه هنا.

وعلى بعد فرسخين من أريحا، وذلك على مقربة من البحر الميت توجد بيت أوله(قصر حجله) حيث ناح بنو إسرائيل لوفاة يعقوب أباهم، وذلك بعدما جلبوا جسده من مصر، ويبعد هذا المكان فرسخاً

واحداً عن الأردن، وهناك يسكن رهبان إغريق (أرثوذكس).

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من أريحا، وفرسخ واحد عن بيعة القديس يوحنا القائمة قرب الأردن، يوجد البحر الميت، الذي يدعى أيضاً باسم بحيرة اسفلت، أي بحر الحمر، أو بحر الملح، وهو يفصل العربية عن اليهودية، ويوجد على شواطئه الشرقية بلاد مآب، وعمون، وجبل سعير، وهو مما حدثتكم عنه من قبل، وهو يمتد حتى قادش بارينا (القفار)، وبرية فاران.

وفي حوالي منتصف الطريق، على شاطئه الشرقي من الممكن رؤية الشوبك (الكرك)، التي كانت تعرف في القديم باسم البتراء في القفار، وتعرف الآن باسم الكرك، وهي قلعة فائقة الحصانة بنيت من قبل بلديون ملك القدس، بقصد توسيع حدود مملكة القدس، لكنها مملوكة الآن من قبل السلطان، ويضع فيها جميع خزائن مصر والعربية.

وعلى مسافة سفر يومين إلى الجنوب الشرقي من الكرك توجد ايريبولس (ربّه) التي اسمها الآن البتراء، وهي المدينة الحاضرة لجميع العربية الثانية، وذلك حسبما أوضحنا من قبل، وكانت في القديم تعرف باسم عار، وهي قائمة على جدول أرنون، على حدود المآبيين، والعمونيين، والعموريين، وعلى هذا الشاطئ نفسه، يوجد الموضع الذي اقتيد منه بلعام إلى جبل مآب ليتولى لعن بني إسرائيل.

وعلى بعد خمسة فراسخ إلى الجنوب الغربي من أريحا توجد بلدة صغور (الزويرة)، وذلك عند سفح جبل عين الجدي، ويقوم بين هذا الجبل والبحر الميت عمود الملح، الذي يحدثنا سفر التكوين بأن امرأة لوط قد تحولت إليه، ولقد حاولت مراراً رؤية هذا العمود، لكن المسلمين أخبروني بأن المكان غير آمن، بسبب الحيوانات الضارية والأفاعي، والهوام، وبشكل خاص بسبب البدو الذين يسكنون في تلك

الأجزاء، وهم شجعان جداً وذوي جرأة عظيمة، ورجال أشرار، وأبقتني هذه المناقشات متشوقاً للذهاب إلى هناك، لكن علمت بعد ذلك أن الأمر لم يكن كذلك.

وقياس عرض البحر الميت هو ستة فراسخ من الشرق إلى الغرب، أما طوله من الشمال إلى الجنوب فهو سفر خمسة أيام، وذلك حسبما أخبرني المسلمون، وهو دائماً يصدر الأبخرة الدخانية، وهو مظلم جداً مثل مدخنة الجحيم، وقد كتب حول هذا وقيل كثيراً من قبل مختلف الناس، وقد تعرفت على كثير مما هو متداول، ومع هذا عليك أن تعلم بأنني لن أخاف إخباركم بالذي رأيته بأم عيني، ومعني آخرون كثير، والذي وضح لي أن جميع الوادي، الذي كان يدعى بحق باسم الوادي المشرق، وذلك من نهاية هذا البحر التي هي برية فاران حتى إلى سفر نصف يوم، أو ما يقارب ذلك، وراء أريحا، قد صار قاحلاً بسبب الأبخرة الدخانية لهذا البحر، وهكذا هو لا تنمو فيه لالنباتات ولا الأعشاب من أي نوع من الأنواع، في جميع عرضيه، الذي هو خمسة فراسخ وفي بعض الأماكن ستة فراسخ، وذلك باستثناء مدينة أريحا، حيث يوجد قصب السكر، والبساتين والحدائق المروية من قبل نبع إيليا، وهذا في الحقيقة قضاء مرعب من قبل الرب، الذي عاقب هكذا منذ قرون كثيرة ذنوب السدوميين، ذلك أنه حتى الأرض نفسها دفعت ومازالت تدفع العقوبة منذ عدد كبير من آلاف السنين.

وفوق البحر، على جهة اليمين، وكذلك على جهة اليسار هناك جبال جرداء، وقاحلة مشعثة، وهي مسكونة فقط من البرابرة، وذلك امتداداً لأميال كثيرة، وذلك بعيداً حتى أقصى مكان يمكن أن تصله الأبخرة الدخانية عندما تساق من قبل الريح.

وأعلن بعضهم أن نهر الأردن لا يمزج مياهه بمياه ذلك البحر، بل تتولى الأرض ابتلاع مياه هذا النهر قبل أن يصل إلى مياه البحر، لكن

المسلمين أخبروني أن الحقيقة هي أن كلاهما يدخلان البحر، ويتركانه كذلك، لكن بعد مغادرتها له بوقت قصير يتلعان من قبل الأرض.

ويفيض هذا البحر في بعض الأوقات، ومرد ذلك إلى ذوبان الثلوج من على جبل لبنان والجبال الأخرى، وفيضان اليرموك، وجداول كل من: ييوق، وحرمون (اقرأ: أرنون) وزارد (العدد: ١٢/٢١)، وكذلك مياه الأمطار المتساقطة على الجليل، وعلى جبل جلعاد، وفي بلاد مآب، وعمون، وسعير، فالمياه تتجمع من هذه الأماكن كلها وترفد نهر الأردن، الذي يصب في هذا البحر، فضلاً عن هذا يتم العثور على الحُمر فيه، ويستخرج من داخله، ويتجمع هذا الحُمر عندما تحرك الرياح مياه البحر، ويتعلق ببعضه، ومن ثم يقذف إلى الشواطئ بكميات كبيرة، وهذا الحمر قوي، ودوائي، ولا يمكن إذابته إلاّ بدماء الطمث، ويطلق اسم الحمر اليهودي عليه، ولهذا دعيت البحيرة باسم بحيرة اليهودية، أو بحيرة اسفلت، أي أن تقول بحيرة الحمر، وقد أخبرنا سفر التكوين: ١٤، أنه كان هناك كثيراً من «آبار حُمر» أو الحفر الطينية، في وادي سدوم، الذي هو الآن بحر الملح، ويوجد الآن كثير منها على شاطئه، ويوجد هناك دوماً أهرام مبني قرب كل بئر، وهذه الأمور رأيتها بنفسي، وليكن ما قلته عن هذا البحر فيه كفاية.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من موقع الجلجال المتقدم الذكر، والمسافة نفسها من نبع إيليا، نحو الشمال، في الجبال، وذلك على الجانب الشمالي من جبل القرنطل، تقوم مدينة عاي، التي استولى عليها يوشع عنوة، وقتل ملكها، وذلك حسبما أخبرنا في سفر يشوع (٨).

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشمال، إنما قليلاً إلى الغرب من عاي، توجد مدينة بيت إيل (بيتين)، التي حملت فيما مضى اسم لوز، وذلك في ديار سبط بنيامين، وقد حدث هناك أنه عندما كان يعقوب ذاهباً باتجاه الشرق، وهارباً من أمام وجه أخيه عيسو، أن نام متخذاً

صخرة وسادة له، ورأى سلاً مقاماً فوق وجه الأرض، وذروته ممتدة حتى السماء وواصلت إليها، وهكذا إلى آخر ما رآه، حسبما نقرأ في سفر التكوين، وقد نصب هناك صخرة، لتكون بمثابة عمود، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، هذا وإن الذين يقولون بأن هذا قد حدث في القدس مخطئون، لأن مليكصادق كان آنذاك يحكم في القدس، وكانت وقتذاك مدينة جليلة، وكذلك لم يكن من الضروري بالنسبة ليعقوب أن ينام هناك في الحقل، ولا أن ينام مطلقاً على جبل موريا، الذي كان آنذاك — كما هو الآن — متصلاً بالمدينة، زيادة على ما تقدم إن البراهين على هذا الأمر مرئية في بيت إيل في هذا اليوم: فهناك الصخرة المقامة بمثابة عمود، وقبر كل من دبورة ومرضعة رفقة [التكوين: ٣٥/٨] وذلك تحت المدينة في الوادي، ومع هذا يقول بعضهم: لقد أطلق على القدس اسم بيت إيل، ويستندون بحماسة على ما جاء في هذين البيتين:

«سوليا، وبيت إيل، وأورشليم، ويوس، وإيلياء،

بهذه الأسماء دعيت مدينة القدس المقدسة، وباسم سالم أيضاً».

ولسوف أكون مسروراً أن أتعلم من هؤلاء الناس، في أية أماكن من العهدين القديم والجديد، قد وجدوا برهاناً على أن القدس قد دعيت باسم لوز، أو بيت إيل، اللهم مالم يكونوا قد قصدوا تسمية الهيكل ببيت إيل، أي بيت الرب، وزيادة على ما تقدم إننا عندما نقرأ ما جاء في سفر التكوين: ٣/١٣ قوله: «وسار إبراهيم في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل»، نجد أن جيروم الذي شاهد المكان، قدم الشرح التالي: «بيت إيل مدينة تبعد إثني عشر ميلاً عن القدس، وواقعة في ديار سبط بنيامين، على يدك اليمين وأنت ذاهب إلى نابلس»، ونابلس هي شكيم، قرب لوز، الواقعة في ديار سبط إفرايم، وتم الحدود فيما بين سبطي بنيامين وإفرايم من خلال الوسط هناك.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشمال من بيت إيل، باتجاه رامه، توجد نخلة دبورة، زوجة لشدوت Lapidoth ، التي كانت قاضية إسرائيلي، وأرسلت باراق للقتال ضد سيسرا على جبل الطور.

وعلى بعد فرسخين من بيت إيل، وفرسخ واحد من القدس، وليس بعيداً عن رامة بنيامين، توجد عناتا Anathoth ، وهي قرية كهنة صغيرة، وكانت مسقط رأس النبي إرميا.

وإلى الشرق والجنوب من عناتا تبدأ القفار القائمة بين القدس وأريحا، والتي يطلق الآن عليها اسم قفار القرنطل، وتمتد إلى ما وراء الجبل حتى القفار الموجودة مقابل تقوع وعين الجدي.

وعلى مقربة من البحر الميت، على شاطئه الغربي، وعلى بعد فرسخ واحد عن الزويرة Zoar ، تصعد إلى جبل عين الجدي، إلى حيث تجبأ داوود، عندما بحث شاؤول عنه ليقتله، وذلك حسبما قرأنا عن ذلك.

وكان على هذا الجبل ومن حوله حديقة بلسم، لكن في أيام هيروود الكبير، قامت كليوباترا ملكة مصر، كراهية منها لهيروود، وإيثاراً لمارك أنتوني، فنقلت هذه البستان إلى بابلينون في مصر، ولقد رأيتها هناك عندما أتيت إلى مصر إلى السلطان، الذي أخذني إلى هناك، وقد جلبت معي كثيراً من خشب البلسم، واغتسلت بمياه البئر الذي يسقي الحديقة، وقد أخبرني الحدائق أن الثيران لا تقوم بنضح الماء من ذلك البئر، من ظهيرة السبت حتى الاثنين، ولو قطعت تقطيعاً.

وطول هذه الحديقة رميتي سهم، ورمية حجر أو أكثر عرضاً، وتفلاح حديقة البلسم في مصر من قبل حدائقين مسيحيين فقط، وتسقى من البئر الذي هو هناك، وهو الذي يقال بأن العذراء مريم غالباً ما قامت بتغطيس الطفل يسوعاً فيه.

ومع هذا ما يزال هناك حتى هذا اليوم فوق عين الجدي بعض الكروم الرائعة الصالحة لإنتاج النبيذ، لكن المسلمين لا يدعونهم، ولا يوجد هناك مسيحيين ليتولوا رعايتهم.

وتحت عين الجدي، وعلى جانب البحر الميت هناك أشجار فائقة الجمال، لكن ثمارها عندما تقطف تكتشف بأنها كلها رماد ومجرد غبار في داخلها.

وجبال عين الجدي مرتفعة جداً، وذات شكل غريب ولها شعاب صعبة وعرة، ووديان، بشكل أنا لم أشاهد نظيراً له، وهي تبعث الرعب إلى الذي ينظر إليها ويتأملها.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الغرب من أريحا، وذلك على الطريق إلى القدس، إلى اليسار من القرنفل تقوم قلعة أدوميم Adummim [عند طلعة الدم]، وذلك في المكان الذي وقع فيه الرجل بأيدي اللصوص عندما كان نازلاً من القدس إلى أريحا، وقد حدث مثل هذا مراراً فوق البقعة نفسها في الأيام الحالية، وقد نال المكان اسمه من الدم الذي سفك مراراً هناك، وفي الحقيقة إنه لأمر مرعب أن يكون الإنسان هناك، وخطر جداً، ما لم يرتحل الإنسان ويسافر برفقة حراسة.

وعلى بعد فرسخين إلى الغرب من أدوميم توجد بحوريم Bo-hurim في ديار سبط بنيامين، وكانت هذه مدينة شمعي بن جيرا، الذي شتم داوود عندما هرب من أمام أبشالوم، وذلك حسباً قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ٥ / ١٦، وهي قلعة جميلة، وقائمة فوق هضبة عالية.

وفي الوادي تحت، يوجد على الجهة الشرقية من الطريق السلطاني العام، الذي يخرج من أدوميم، صخرة بيثون Beon (بوحن Bo-han) (دبوس العبد، حجر لتحديد المسافات من العصر

الروماني)العائد لأبناء سبط رأويين، وهي كبيرة مثل قِدر، ويبدو أنها من الرخام.

وعلى بعد رميتي سهم إلى الغرب من بحوريم، تقوم بيت عنيا، على منحدر رابية هناك، وبيت عنيا هي قرية:مرثا، ومريم، وقبل بابها، وعلى بعد أقل من رمية حجر، وعلى مقربة من بركة هناك في حقل، من الممكن مشاهدة المكان الذي جاءت إليه مرثا أولاً، ثم تبعتها إليه مريم- بناء على دعوتها- وذلك للقاء الرب عندما جاء الى بيت عنيا.

وما برحوا يرون في بيت عنيا، بيت سمعان المجذوم- الذي جلس فيه معه الى المائدة، ومثل ذلك بيت مرثا،الذي كان فيه ضيفاً مراراً،وقد عمل هذا البيت الآن وصار كنيسة مكرسة لهما،ويشاهد هناك أيضاً قبر العازر،الذي قام منه، وهو ليس بعيداً عن الكنيسة،وقد بني في هذا المكان بيعة بهية وجميلة من الرخام، وأبدة ضريح مغطاة بالرخام، كنت قد نزلت إليها، ويجل المسلمون هذا الضريح كثيراً، بسبب معجزة القيام من الموت التي صنعها الرب هناك.

ولدى مغادرتك لبيت عنيا، لايمكنك رؤية القدس أولاً، بسبب وجود جبل الزيتون، الذي يقف بينهما،والذي عليك هو الارتقاء الى مكان مرتفع، وعندها يمكنك رؤية جزء من المدينة المحبوبة وجبل صهيون، يا إلهي، كم من الدموع التقيّة سكبت في هذا المكان من قبل الذين قدموا إليه، ثم تملكوا بهجة الدنيا كلها، حيث رأوا مدينة الملك العظيم،وكم هو ممتع أن ترى مكان مجدك، أيها اليسوع المبارك،وكذلك عندما نرى مكان خجلك واضطرابك بمثل هذا السرور! لكن دعونا الآن نضع هذه الأمور كلها جانباً، ونمضي بقدر ما نستطيع من سرعة الى القدس .

وعندما ننزل الآن من الجبل، ستكون المدينة ثانية محجوبة عن

أنظارنا، فضلاً عن هذا، هناك على الجهة الشرقية من جبل الزيتون، قرب بيت فاجي، قرية صغيرة جداً، نمر من قربها من على مسافة رمية حجر، وذلك على جهة اليسار في الوادي، وذلك عند سفح جبل العدوان [الجزء الجنوبي من جبل الزيتون]، ونأخذ الطريق الذي يساير الجهة الجنوبية من جبل الزيتون، ونستدير حوله، فنصل الآن الى المكان الذي ركب فيه ربنا ظهر أتان، وعلى الفور تشرق أمامنا وتشتع المدينة، مع الهيكل، وكنيسة الضريح المقدس، والأماكن المقدسة الأخرى، ونكون الآن قد وصلنا الى نهاية الانحدار من جبل الزيتون، حيث رأى الرب المدينة، وبكى بحرقة عليها، في حين مضت الحشود وسارت من أمامه ومن خلفه، وهي تصرخ «المجد لابن داوود»، وهي أيضاً مبتهجة لقدمه المبارك، ودعونا نتابع سيرنا، ونمر عبر جدول قدرون، بين مكان صلواته عندما كان يعاني من آلامه ومن أسره في جيساني، ولتبعه، إذا صدف وتمكنا من معاناة الوصول إلى الجلجلة، حيث سمرت قدماه على الصليب، وكان الدم يسيل منها، فدعونا نموت هناك مع المسيح، حتى يمكن أن نبعث معه ثانية.

القدس

٨ — والآن، القدس، المدينة الأسمى لدى الرب، حيث هناك أشياء رائعة جداً، قد جرى الحديث حولها، وما يجري يومياً، وهي متوضعة على أرض جبلية، فالجبال قائمة من حولها، ومع هذا تمتلك بلاداً جيدة وخصبة في أحوازها، وذلك ما عدا في الشرق باتجاه الأردن، وهي تبعد ستة وثلاثين فرسخاً عن عكا، القائمة إلى الشمال، وستة عشر فرسخاً عن سبسطية أو السامرة، وثلاثة عشر عن شكيم، وسبعة وثلاثين عن الناصرة، وجميع هذه الأماكن واقعة إلى الشمال منها، وهي تبعد ثلاثة عشر فرسخاً عن يافا، القائمة قليلاً إلى الشمال الغربي منها، وهي أيضاً تبعد ستة فراسخ عن أريحا، القائمة إلى الشرق منها، وكذلك هي على

فرسخين عن بيت لحم، وثمانية عن تقوع، وثمانية عن حبرون، وهذه الأماكن واقعة إلى الجنوب منها.

وهي قائمة على شكل مزدوج على منحدر رابية، أي أن تقول على طرفيها الجنوبي والغربي، ففي الاتجاه الجنوبي هي قائمة على امتداد طرف جبل صهيون، أو بالحري جزء منها هو على جبل صهيون نفسه، وجزء على سفوحه هناك، ويمتد طولها من جبل صهيون باتجاه الشمال، ويوجد على جانبها الغربي جبل جيحون، ومنه تمتد عرضياً باتجاه الشرق، حتى تصل إلى جدول قدرون، أو وادي شعفاط، الذي هو الشيء نفسه.

وهي مدينة واسعة إلى حد ما، وذلك حسبما سأحدثكم فيما يلي، وهي لا تقوم — كما يحاول عبثاً بعضهم أن يقول — في مكان مختلف عما كانت عليه في أيام آلام الرب، وهم يجاججون قائلين بما أن معاناة الرب كانت خارج الباب، والمكان الآن هو في داخل أسوار المدينة، وبناء عليه لا بد أن المدينة كانت قائمة في مكان مختلف، غير أنهم لا يعرفون ما الذي يقولونه، ويريدون أن يظهر ما لم يروونه، فالمدينة قائمة الآن حيث قامت دوماً، لأنه بما أن هيكل الرب قائم داخل أسوار المدينة، سيكون من الحماقة، لابل من غير الممكن مطلقاً نقله إلى مكان آخر بسبب أسواره المحيطة به من كل جانب، فضلاً عن هذا من غير الممكن كونه في مكان مناسب آخر، لكن الحقيقة المقررة هي إن المدينة توسعت نحو الخارج، وذلك بالعرض وليس بالطول، وجميع المدينة القديمة مع جبل صهيون موجودان الآن داخل الأسوار، ومسكونان، لكن في هذه الأيام عدد السكان قليل بالنسبة لمدينة من هذا الحجم الكبير، لأن السكان فيها يعيشون في رعب متواصل، ولقد قمت، بقدر ما أستطيع بالبحث والتقصي عن وضعها القديم.

ففي الزمن القديم، مثلما الحال في هذه الأيام، يشرف جبل صهيون جزئياً فوق المدينة، لأنه مكان رحب، من الممكن في داخله استيعاب

مدينة واسعة إلى حد ما، وهذا الجبل موجود عند باب الماء، أو باب نبع سلوان، على الطرف الشرقي، وهويشكل نصف دائرة حولها بوساطة الطريق الممتد من الجنوب إلى الطرف الغربي، حيث كان برج داوود موجوداً، وكان موجوداً خلال جميع هذه الدائرة صخوراً منحدره، وقناطر تشبه القناطر نصف الدائرية والمسماة ميلو Mello ، ولكي يتم ملء ما كان بين جبل صهيون والجزء المنخفض من المدينة نقرأ بأن ملوك اليهودية بذلوا جهوداً كبيرة، ويقوم برج داوود على الطرف الغربي، وذلك فوق رابية مرتفعة بعض الشيء أكثر من سور الصخرة المنحدر، أما بشأن مجرى السيل الذي يأتي من الجانب الجنوبي لجبل صهيون، ويتدفق جارية نحو الطرف الغربي، فإنه ينعطف مباشرة، ويستدير من الغرب إلى الشرق مباشرة، فور وصوله إلى البرج وتطويقه له، وعلى هذا يقوم البرج فوق صخرة موجودة عند منعطف مجرى السيل، وانقسم الوادي، أو مجرى السيل، الذي التف دائرياً هناك، إلى وادين عميقين، يمضي أولهما باتجاه الشمال، ويمضي الآخر باتجاه الشرق، ويصنع هذان الواديان قرنة أخرى في مقابل القرنة حيث يقوم برج داوود، وهي التي كانت قرنة المدينة التحتا، حسبما سنوضح فيمايلي:

ويمر هذا الوادي الذي يقبل منحدره من برج داوود، ويسير على طول الطرف الشمالي لجبل صهيون حتى جبل موريا، حيث كان الهيكل، فاصلاً بذلك جبل موريا والمدينة التحتا كلها عن جبل صهيون، ويمضي مجرى السيل هذا أبعد بعد ليصل حتى جدول قدرون، وذلك من خلال المكان الذي يقوم فيه باب الماء الآن، فيما بين جبل صهيون وقصر سليمان، الذي كان قد بني على الطرف الجنوبي من جبل موريا، وعلى هذا كان مجرى السيل هذا يطوق في العصور القديمة جبل صهيون من كل جانب، وهذه كانت مدينة داوود، وفي هذه الأيام جميع مجرى السيل ممتلئ، ومع ذلك فإن آثاره يمكن تحديدها وفق هذه الطريقة.

ويجري مجرى السيل الثاني، أو الذي انفصل عنه، عند برج داوود، حسبما قيل من قبل، يجري باتجاه الشمال، ويشكل خندق المدينة على الجهة الغربية، وذلك على طول امتداد المدينة، حتى نهايتها الشمالية، وكان الطريق كله على طولها معاقاً من الجانب الداخلي بوساطة صخرة اسمها عند يوسفوس أكرا Acra ، وعلى هذه الصخرة جرى بناء سور المدينة، ويحيط هذا السور بالمدينة من الغرب، حتى باب إفرايم، حيث ينعطف ويلتف ثانية إلى الشرق، وذلك حتى باب الزاوية، وهو الذي كان قائماً عند زاوية المدينة، وهي الزاوية الشمالية الشرقية، وينعطف السور هنا ثانية من الشمال مستديراً شرقاً إلى الجنوب، ويمتاز خارج منطقة الهيكل، ويحيط بها وبيت الملك، وبباب النبع أو الماء قرب جبل صهيون في الشرق، وهذا هو إطار المدينة، وبما أن الصخرة المتقدمة الذكر، أي التي بني عليها سور المدينة الغربي، كانت عالية جداً، وخاصة عند الزاوية التي يلتقي فيها الجزء الغربي من السور بالجزء الشمالي، فقد غدا هذا المكان أعلى بكثير من البقية، وهنا جرى بناء برج [قلعة جالوت — أو قلعة البيازنة] دعي باسم نبولوسا Neb- ulosa وذلك مع قلعة حصينة جداً، ماتزال خرائبها موجودة هناك، ومنها يمكن للانسان مشاهدة العربية، والبحر الميت، وأماكن أخرى كثيرة، ومع هذا قد يقول بعضهم بأن برج نبولوسا كان قرب الهيكل، بيد أن هذا أمر ينفيه شكل الأرض والسفوح والمنحدرات الموجودة هناك، ومن هذه الصخرة العالية جداً والقائمة في الجهة الغربية، حسبما قلنا من قبل، يأخذ عرض المدينة بالانحدار تدريجياً نحو السور الشرقي، القائم فوق جدول قدرون (وادي جهنم)، وكان هذا المكان، وكذلك هو الآن، الجزء الأعظم انخفاضاً في المدينة، ولهذا من المعتاد أن تجري فضلات المدينة وتعبر باب الروث لتصب في بركة قدرون.

وعبر مجرى السيل، أ و الوادي، المتقدم الذكر على الجهة الغربية من

المدينة، وذلك على جهة يسارك وأنت خارج من الباب القديم أو باب القضاء، هناك جرى صلب الرب، وبعد آلامه بوقت طويل امتلاً مجرى السيل، وأقيم سور جديد حول برج داود، ويمتد إلى باب إفرائيم، الذي يعرف الآن باسم باب اسطفان.

وعلى هذا يمكنك أن ترى أن المدينة معلقة ناتئة على جهة الجنوب بواسطة جبل صهيون وعلى جهة الغرب بواسطة تلك الصخرة، وجزء من جبل جيحون، الذي ينبعث مرتفعاً ارتفاعاً عالياً على طول الجهة الغربية، وعلى هذا فإن المدينة كلها قائمة— كما كانت— على السفوح نحو الاتجاه الشرقي والاتجاه الشمالي، عند أسفل هذين الجبلين.

وكان جبل موريا— حيث قام هيكل الرب، وحيث كان قصر الملك قد بني— أعلى بعض الشيء من المدينة، وهذا ما هو مرئي بوضوح من وضع الهيكل وساحاته، وذلك حسبما وصفهم يوسفيوس، فكل منهم موصوف في تواريخه، غير أنه من المعتقد أن جميع هذه الأماكن هي الآن مسواة تماماً ومهدمة، وهي جميعاً تقريباً أكثر انخفاضاً من أي جزء من المدينة، لأن الجبل قد هدم من قبل الرومان ورمي في جدول قدرون [واداي جهنم] وذلك مع جميع خرائب الهيكل وساحاته، وذلك حسبما هو مرئي في هذا اليوم، ومنطقة الهيكل مربعة، وهي أكثر من رمية سهم طولاً وعرضاً، ويلامس الهيكل المبني الآن هناك سور المدينة تقريباً، وهو ليس الهيكل الحقيقي والقديم، لأنه وجدت أربعة هياكل بينه وبين السور، وهو الآن لا يبعد تقريباً أكثر من مائة قدم عن السور وعن جدول قدرون.

وليس بعيداً، كأن تقول، أقل من رمية حجر إلى الشمال من منطقة الهيكل، يوجد باب الوادي الذي دعي هكذا لأن الانسان يذهب منه وينزل إلى وادي شعفاط، وقد عرف هذا الباب أيضاً باسم باب الضأن، لأن من خلاله كان يؤتى بالمواشي للتضحية في الهيكل، وإلى جانبه يقوم

برج اعتقد بعضهم بأنه برج نبولوسا، أو برج حنانثيل Hananeel، غير أنه في الحقيقة هو برج فاسليوس Phaselus، الذي من الممكن مشاهدة خرابته حتى الآن.

وبالدخول من باب الوادي أو باب الضأن، ومن ثم السير بشكل مستقيم، سيجد الانسان على مقربة من منطقة الهيكل بركة الضأن حيث اعتاد الـ Nethinims على غسل قرايينهم ومن ثم اعطاءهم إلى الكهنة لتقديمهم في الهيكل، ومن الممكن رؤية استمرار هذا من خلال وجود القناطر الخمسة التي - حسبنا حدثنا القديس يوحنا - اعتاد الناس المرضى على الرقود تحتها، انتظاراً لاضطراب الماء وتحركه.

وعلى الجهة اليمنى للطريق، ولدى دخولك عبر الباب المتقدم الذكر إلى كنيسة القديسة حنة، ترى هناك بركة أخرى كبيرة تدعى «البركة الداخلية»، وقد صنع هذه حزقيا وفق الطريقة التالية: أوقف المجرى العالي لوادي جيحون، وساق مياهه تحت الأرض إلى غربي برج داود، وذلك من خلال الوادي المتقدم الذكر، بحفره الصخر الصلب بالحديد، وذلك حسبما نقرأ في الإلهيات، وساق الماء من خلال وسط المدينة إلى هذه البركة، وكانت الغاية من ذلك أن يتوفر الماء لشرب الناس في أيام الحصار، ولكي لا يتمكن الآشوريون من اعاققتهم [إشعيا: ٣/٧، ٢/٢٦]. الملوك الثاني: ١٧/١٨]، أما بالنسبة لنبع ماء جيحون، القائم قرب حقل القصار، فقد ساق مياهه إلى البركة العليا، الموجودة فوق بركة سلوان [إشعيا: ٣/٧]، ذلك أن هذه البركة عرفت باسم البركة العليا، بالنسبة لموضع بركة سلوان للاغتسال، التي كانت تتلقى الماء من هذه البركة، ومن نبع سلوان، ذلك أنها منخفضة بوضعها أكثر منهما.

واعرف الآن هذه البرك المختلفة وأسمائها، وكانت البركة الرئيسية التي هي البركة الأولى في القدس، بركة الضأن، وكان لها خمس قناطر، وقد عمل سليمان هذه البركة، من أجل خدمة الهيكل، وكانت البركة

الثانية على مقربة منها، في الجهة الشمالية، في كنيسة القديسة هيلانة، وقد دعيت باسم البركة الداخلية، والذي صنعها هو حزقيا، وقد تقدم وصفها الآن من قبل، والبركة الثالثة هي بركة سلوان للاغتسال، التي كانت قائمة عند سفح جبل الزيتون مع جبل صهيون، قرب حق الدم، وهي تحصل على مياهها من نبع سلوان، وحزقيا هو الذي صنع هذه البركة أيضاً، والبركة الرابعة هي البركة العليا، التي ذكرناها قبل قليل، والتي صنعها حزقيا أيضاً، وإذا ما وجدت في أي مكان قد ذكر بأن هذه البركة الرابعة قد كانت في داخل المدينة فإن ذلك غير صحيح، لأن ذلك كله غير ممكن، وأعرف أن الانسان يقرأ في شرح وفي نص: «فتستقون مياهها بفرح من ينابيع الخلاص» [اشعيا: ١٢]، بأن البركة العليا كانت في المدينة، وأن مياهها كانت تأتي إليها من نبع سلوان، لكن هذا من غير الممكن مطلقاً، لأن المدينة أعلى بكثير من أربعمئة ذراع من نبع سلوان، ولا يمكن للماء أن يجري نحو مثل هذا العلو العظيم، ومع هذا صحيح أن مياهها تحصل عليها من نبع سلوان، ومن نبع جيحون المنخفض، ليس بعيداً عن بركة سلوان للاغتسال، هذا ولم أر بركاً أخرى، كما أنني لم أقرأ عن وجود شيء من هذا القبيل، أو أنه وجد في القديم أية برك أخرى في القدس، ما لم يرغب انسان في عدّ «البحر النحاسي» القائم أمام الهيكل، بركة من البرك، وجرى على كل حال، في الأيام المعاصرة بناء بعض أماكن الاستحمام في داخل المدينة، وذلك ليس بعيداً عن بيت البطريرك، ومشفى القديس يوحنا، وهما لم يرد ذكرهما في الكتابات المقدسة.

ويحيط وادي شعفاط أيضاً بالمدينة، ويسير على طول الجانب الشرقي عند سفح جبل الزيتون، ومع أن هذا الوادي عميق نسبياً، هو بالفعل ممتلئ تماماً، لأن الرومان - وفق ما أخبرنا به يوسفيوس - قاموا، عندما كانوا يحاصرون المدينة من ذلك الجانب، بقطع أشجار الزيتون

والأشجار الأخرى، وصنعوا منها سواتر دفاعية لأنفسهم، وقد ملأوا الوادي بالسواتر الدفاعية، فضلاً عن هذا، بعد ما جرى الاستيلاء على المدينة، أمر إليوس هدر يانوس بجميع الخرائب العائدة لساحات الهيكل، فرميت في وادي قدرون، وأمر أيضاً بتسوية جبل موريا، حتى لا يمكن تحصين المكان مرة ثانية، كما أمر أيضاً بفلاحة المدينة بالملح، وهذه الأشياء كلها بديهيّة بالنسبة لأي إنسان يكون في الموقع، لأن ضريح العذراء الرائعة، القائم في وادي شعفاط، ليس في قعره، لكن عند سفح جبل الزيتون، لم يكن أبداً أعلى من قعر الوادي، أو فوق وجهه، وذلك في الأيام التي كانت القدس فيها مسكونة، أي قبل التدمير، وهو الآن عميق جداً تحت الأرض، وهكذا فإن الكنيسة كلها، مع أنها كانت عالية ومقنطرة، هي الآن تحت الأرض تماماً، ومغطاة كلياً، والوادي فوقها كامل الاستواء، وهكذا هناك طريق يمكن للإنسان أن يمشي عليه فوق سطح الكنيسة وهناك على كل حال على وجه الأرض بناء على شكل بيعة، تدخلها، وتنزل من خلالها درجات كثيرة تحت الأرض إلى الكنيسة نفسها، وبذلك تأتي إلى ضريح العذراء الرائعة، وأعتقد أن هناك ستين درجة، والضريح قائم في وسط السدة، أمام المذبح، وهو من الرخام ومزين بشكل رائع، ولقد دخلت إلى هذه الكنيسة، وكنت بها، ورأيت الضريح، لكن هذه الكنيسة رطبة جداً في داخلها، لأن وادي قدرون يجري تحتها، وهو مغطى بالركام الذي أشرنا إليه أعلاه، وفي أي وقت يكون هناك فيضان من مياه الأمطار، يتفجر هذا الوادي الذي ما يزال يجري في القناة القديمة تحت الركام، وينبع، وبذلك يملأ الكنيسة، وهكذا تجري المياه فوق جميع الدرجات، وتتدفق من فم البيعة فوق ذروتهم، وفي أرض مقبرة الكنيسة، ليس بعيداً عن بابها، ينضح الناس من السكان المحليين الماء من بئر سماه نحيميا (١٣/٢): «عين التين»، وهذه العين موجودة أمام باب الوادي، أو باب الضأن، وتضاء كنيسة العذراء المباركة من الداخل بواسطة نوافذ

شرقية، تطل على جبل الزيتون، حيث من طبيعة الأرض يمكن للضوء أن يدخل من خلالها.

وباتجاه الشرق— ليس بعيداً— أن تقول حوالي الخمسين قدماً عن باب البيعة الذي يقود إلى الكنيسة، هناك باب كنيسة أخرى، اسمها جيسماني، حيث كانت الحديقة التي دخل إليها الرب مع حواريه، وهي قائمة على طرف الجبل، ومبنية مقابل صخرة مجوفة معلقة وناتئة من الجبل، وتحت هذه الصخرة كان الحواريون جالسين عندما قال الرب لهم: «اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك» [متى: ٢٦/٣٦]، والمكان الذي جلسوا فيه مرثي في هذا اليوم، ومرثي أيضاً المكان الذي أُعتقل فيه من قبل الحشد، وحيث قام يهوذا بخيائنه بوساطة قبلة، ومن الممكن رؤية طبعة جمجمته فوق الصخرة الناتئة، وعلامات رأسه وشعره، ويحكى بأنه عمل هذه العلامات، لدى امساكه بالصخرة، عندما اعتقله الحشد، واعرف أنه من غير الممكن استخراج غبار من هذه الصخرة، أو اقتطاع جزء منها، فلقد عملت طويلاً بوساطة أدوات حديدية، حتى أتمكن من اقتطاع شظية منها، ومع هذا فإن الطبقات المشار إليهن أعلاه من الممكن رؤيتهن بكل وضوح، وكأن الصخرة قد كانت عجيباً.

وعلى رمية حجر إلى الجنوب من جيسماني يوجد المكان الذي صلى فيه بعيداً عنهم، وأخذ عرقه يتصبب على الأرض مثل نقاط من دم، وهنا أيضاً توجد صخرة من النوع نفسه عليها أيضاً طبقات لركبته ويديه.

وبين هذا المكان وبين جيسماني، وفي مقابل كنيسة العذراء المباركة، يمر الطريق الذي يقود إلى جبل الزيتون، وبيت عنيا، والأردن.

وعلى أكثر من رمية حجر نحو جنوب المكان الذي صلى الرب فيه، في مقابل الهيكل، وعند سفح جبل الزيتون، في وادي شعفاط، يقوم قبر

ذلك الملك، الذي يمتلك أبدة فائقة الجمال قد بنيت فوقه.

وعند سفح جبل صهيون، وفي مقابل قصر سليمان، وذلك على الجانب الغربي من وادي شعفاط، يوجد نبع سلوان، الذي تتدفق منه المياه من خلال أنابيب إلى البركة العليا، وإلى بركة استحمام سلوان، ويكون هذا عندما يفيض النبع بالمياه، لأنه لا يتدفق بشكل متواصل، بل بين آونة وأخرى.

وكل من هاتين البركتين موجودتين عند سفح جبل صهيون، بينه وبين حق الدم، وتصب المياه كذلك في هاتين البركتين من نبع جيحون المنخفض (بركة السلطان)، الذي ينبع تحت حقل القصار، وذلك على مقربة من المكان الذي وقف فيه ربشكا Rabshakeh، وجدف ضد الرب.

وعلى مقربة من هاتين البركتين، أي على مسافة لا تتجاوز رمية حجر، على طول الوادي إلى الجنوب، يوجد حقل حق الدم، وذلك حيث يجري دفن الحجاج، وهو الذي شري بالثلاثين قطعة فضية التي باع بها يهوذا الرب، ويوجد في هذا الحقل كثيراً من الاضرحة ذات النفقات العالية.

ودون البركتين وحقل حق الدم، وذلك على الجهة الشرقية منهم، يجري جدول قدرون، وذلك مع المياه التي يجلبها معه من أجزاء علوية، نذكر منها: رامه، وعناتا Anathoth، وضريح ملكة عبادين، ومن الممكن سماع أصوات خرير المياه الجارية عميقاً تحت كنيسة العذراء المباركة، وهي تتدفق إلى هذا المكان، فضلاً عن هذا نجد أن المياه التي تفيض من هاتين البركتين تلتحق بها، وهكذا تتدفق هذه المياه جميعاً لتصب في وادي جيسماني، الذي عرف أيضاً بموضع توفت، ويوجد في هذا الوادي صخرة زوحت، وكذلك بئر روجل (عين أيوب)، حيث

أقام أدونيا حفلاً عندما حاول أن يكون ملكاً، وهناك أيضاً جرى دفن إشعيا، الذي قطع إلى نصفين قرب نبع سلوان، والموقع على بعد أكثر من رمية حجر عنه، وكل هذه الأماكن فائقة الجمال، مع حدائق ونباتات خضراء، وهي مليئة بالفواكه الجيدة، وتسقى بمياه جدول قدرون.

وفوق هذا المكان يوجد جبل العدوان، وكان في هذا الوادي حديقة، وكانوا قد اعتادوا على تعبير أولادهم هناك من خلال النار، وعبادة الأصنام.

وليكن ما قيل فيه كفاية بالنسبة لوصف الأماكن حول المدينة.

واعلم الآن أن هناك كثيراً من الأماكن المقدسة في المدينة، تحرك الانسان نحو التقوى، وهي كثيرة إلى حد أن يوماً واحداً لا يكفي لزيارتها جميعاً، ومهما يكن من أمر، تحتل كنيسة الضريح المقدس المكان الأول بين جميع هذه الأماكن.

وهذه الكنيسة مستديرة، ومقاييس قطرها بين الأعمدة هو ثلاثة وسبعين قدماً، دون حساب التتوءات الخارجية، التي قياسها ثلاثين قدماً من حول سور الكنيسة، ويوجد فوق ضريح الرب، القائم في وسط الكنيسة، هناك فتحة مستديرة، وعلى هذا فإن مجمل قبو الضريح قائم في الهواء الطلق.

وإلى جوار هذه توجد كنيسة الجلجلة، وهي مستطيلة، ومتصلة بشرفة كنيسة الضريح المقدس، غير أنها منخفضة عنها بعض الشيء، لكنها معاً قائمتان تحت سقف واحد.

وطول الكهف الذي يوجد فيه ضريح الرب ثمانية أقدام، ومثل ذلك ثمانية أقدام عرضه، وهو مغلف كلياً بالرخام في الخارج، لكنه في الداخل مجرد صخرة عارية، كما كانت أيام دفنه، والباب الذي يؤدي إلى مدخل هذا الكهف موجود من الجانب الشرقي، وهو منخفض كثيراً،

وصغير.

ويجد الانسان لدى دخوله على جهته اليمنى قبر الضريح المقدس، وذلك مقابل الجدار الشمالي، وهو من الرخام الرمادي، وعلوه ثلاثة أشبار فوق سطح الأرض المبلطة، وطوله ثمانية أقدام، ومثله مثل القبو أو الكهف نفسه القائم في داخله، مغلق من كل جانب، ولا يوجد ضوء خارجي يتسرب إلى داخله، لانعدام وجود نافذة تجلب الضوء إلى الداخل، لكن هناك تسعة مصابيح معلقة فوق ضريح الرب، وهي تعطي الضوء في داخل المكان، وهناك أيضاً كهف آخر خارج هذا الكهف، له الطول نفسه والعرض والاعداد والتنظيم في كل من الخارج والداخل، ويبدو أن هذان الكهفان من الخارج كأنهما كهف واحد، لكن عندما تدخل سوف تجد أنهما منقسمان ومنفصلان في الوسط أحدهما عن الآخر، ويدخل الانسان أولاً إلى الأول، ومن ثم إلى الثاني، الذي يوجد فيه الضريح، وإلى الأول دخلت النسوة عندما قلن: «من سيدحرج هذه الصخرة لنا» الخ، وقد دحرجت هذه الصخرة نحو مواجهة الباب في الكهف الداخلي، وفي هذه الأيام قسم كبير منها ممدد أمام باب الكهف الداخلي، الذي نحوه وإلى مقابله قد دحرجت، وذلك في الوسط هناك، وقد نقل الجزء الآخر منها إلى جبل صهيون لدعم المذبح هناك، وقد رأيت هذه القطعة أيضاً هناك، في ذلك المكان.

ويبعد جبل أكررا (الجمجمة) حيث جرى صلب الرب فوقه، سبعين قدماً عن مكان الضريح، ويصعد الانسان ثمانية عشر قدماً فوق سقف الكنيسة المبلط إلى المكان الذي بُت فيه في الصخرة، والفتحة — أو الصدع — في هذه الصخرة نفسها التي فيها جرى تثبيت الصليب واسعة بقدر رأس إنسان، وتمتد طولياً ثمانية عشر قدماً، وذلك من مكان الصلب نزولاً حتى البلاط في الأسفل، وإلى هذا اليوم من الممكن رؤية لون دم مولانا يسوع المسيح في صدع الصخرة، وكان هذا الصدع

تحت يده اليسرى، وقد بني في هذا المكان، حيث كانت يده اليسرى،
مذبح رخامي جميل جداً، وقد رتلت هناك قداساً حول الآلام، وقرأت
خبر الآلام وفقاً لرواية القديس يوحنا، في قداس جرى الاحتفال به في
المكان نفسه لآلام المسيح.

وهذه البيعة مبلطة كلها بالرخام، وجدرانها مغطاة بالرخام، ومزينة
بأعمال الفسيفساء من الذهب الخالص،

وعلى بعد أربعة وعشرين قدماً إلى الشرق من الجمجمة، هناك مذبح،
يوجد تحته قطعة من العمود، الذي جُلد الرب عنده، وقد حملت إلى هنا
هنا وجلبت من بيت بيلايطس، وهي مغطاة بحجارة المذبح، إنها بطريقة
يمكن بها لمسها، ورؤيتها، وتقييلها من قبل المؤمنين، والعمود قطعة من
صخرة رخامية ساقية داكنة، فيها نقاط حمراء طبيعية، يعتقد العامة أنها
لطح من دم المسيح.

ويقال بأن شطراً آخر من هذا العمود قد نقل إلى القسطنطينية.

وعلى بعد عشرة أقدام إلى الشرق من مذبح هذا العمود، ينزل
الانسان أربعين درجة إلى المكان الذي وجدت فيه هيلانة الصليب.
ويوجد هنا بيعة مع مذبحين عميقاً تحت الأرض.

ويبدو لي أن المكان الذي استخرج منه الصليب قد كان واحداً من
خنادق المدينة، فيه كانت ترمى الصلبان، بعد إنزال الأجساد عنها، وفيه
أيضاً كانت ترمى جميع فضلات المدينة التي تراكمت فوق الصلبان،
وبقي الأمر كذلك حتى جاءت هيلانة فنظفت المكان ووجدت
الصليب، لأن مكان الآلام كان على مقربة من المدينة، وكانت هناك
حديقة في ذلك المكان.

هذا وإن المكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة على مقربة من

الصليب مع المرأتين الأخرتين، لم يكن ذراع الصليب في جهة الشمال، بل أمام وجه ابنها في الجهة الغربية، أو قريب من هناك، والمكان الذي وقفت فيه أمام وجه ابنها، وهو معلق فوق الصليب، مرئي عند سفح الجبل مع الصخرة التي جرى تثبيت الصليب عليها، وهو مبجل من قبل المؤمنين، وغالباً ما رأيت هذا المكان، فضلاً عن هذا، عندما كان المسيح معلقاً فوق الصليب أدار وجهه نحو الغرب، وليس نحو الشرق، كما ذهب بعضهم إلى القول، وهذا واضح لأن مجرى السيل الذي تقدم ذكره، والذي خدم بمثابة خندق للمدينة على الجهة الغربية، كان خلف الصليب، وقد ألقى الصليب فيه، وفيما بعد تم العثور عليه هناك حسبما تقدم القول.

وهناك عدد كبير من المذابح المزينة في هذه الكنيسة.

وقبل الباب الغربي لهذه الكنيسة، يوجد المكان، الذي صلت فيه مريم المصرية أمام تمثال العذراء المباركة، وذلك بعدما حاولت دخول الكنيسة، فدفعت بشكل اعجازي ولم تتمكن من الدخول إليها، ثم تمت تعزيتها باستجابة العذراء المباركة لصلواتها.

وبالذهاب من هناك نحو برج داود وجبل صهيون، يوجد المكان الذي قتل فيه صبراً القديس جيمس من قبل هيروود أغريبا، وذلك حيث المكان الذي سخر فيه اليهود من المسيح، وأيضاً المكان الذي سجنوه فيه حتى الصباح، وهو المكان صار يعرف باسم سجن الرب، وعلى رمية حجر من هذا المكان يوجد الموضع الذي انتقلت إليه مريم العذراء المباركة وسكنت فيه طوال المدة التي عاشتها، بعد صعود الرب إلى السماء، وعلى مقربة من هذا المكان الذي القاعة الكبرى للعشاء، حيث تعشى الرب مع حواربييه، وغسل أقدامهم، وأعطاهم جسده ودمه، وظهر لهم مرات عديدة بعد قيامته، وحيث جرى اختيار متى رسولاً من قبل الجميع، وحيث نزل الروح القدس، وتم أيضاً صنع أشياء

رائعة كثيرة.

واعلم أن مدينة القدس قائمة فوق أرض عظيمة الارتفاع، يمكنك منها رؤية جميع العربية، وجبل عبريم، ونبو، وبسغة، وسهل الأردن، وأريحا، والبحر الميت، حتى البتراء في الفيافي، وأنا لم أشهد قط أية مدينة أو مكان، امتلك مشهداً أجمل، ويمضي الانسان صعوداً إليها من كل جهة، لأنها قائمة فوق البقعة الأعلى في البلاد، وذلك باستثناء شيلوه، الموجودة على بعد فرسخين من هناك.

وبالنسبة لحجم المدينة المقدسة، عليك أن تعرف، أن قياس محيط المدينة حوالي ثلاث وثلاثين غلوة، وذلك من دون حساب جبل صهيون، فهذا ما ذكره يوسفيوس، أما هي كلها مع جبل صهيون: فإن السور الخارجي— أي أن تقول السور الثالث، أيضاً تبعاً ليوسفيوس نفسه— فيه تسعين برجاً، ويقع كل برج على مسافة مائتي ذراع— أي أربعمئة قدم— مما يجعل بين كل برج وبرج مسافة ستين خطوة، وإذا ضربنا هذه الستين خطوة بالتسعين برجاً، فإن النتيجة سوف تكون خمسة آلاف وأربعمئة خطوة، وتشكل هذه الدائرة حول المدينة، وإذا حسبنا الآن أن خمسمئة خطوة وخمس وعشرين خطوة تساوي غلوة، فإننا إذا قسمنا خمسة آلاف وأربعمئة على مائة وخمس وعشرين، فإن المحصلة هي أربعين غلوة، وهذه تساوي خمسة أميال، فهذا كان محيط المدينة في أيام تدميرها من قبل الرومان، حسبما أخبرنا يوسفيوس، لكن منذ ذلك الوقت قام المسيحيون بتوسعة المدينة، وأدخلوا مكان ضريح الرب إلى داخل الأسوار، وقال اللورد المبجل الأب جيمس دي فيتري، بطريك القدس في كتابه حول الاستيلاء على الأرض المقدسة، بين أشياء وقضايا أخرى: «غالباً ما ذكر، وعلينا أن نذكر دوماً، أن المدينة قائمة كلها فوق جبل مرتفع، وهي محاطة من جميع الجوانب بسور قوي، وهي ليست منزعجة بضيق المساحة الشديد، ومثل هذا ليست مضطربة

بسبب وجود فائض بالحجم، فمقاسها أربع رميات سهم من السور إلى السور المقابل، وتمتلك على الجهة الغربية حصناً قد بني بالحجارة المربعة، وهذه الحجارة ملتصقة مع بعضها بعضاً بشكل غير قابل للكسر، وجاء ذلك بوساطة الملاط والرصاص، ويقوم هذا الحصن من أحد الجوانب بدور سور المدينة، وهو يعرف باسم حصن برج داوود، وهو الذي يسميه بعضهم باسم برج أنطوني، وهناك على جانبه الجنوبي جبل صهيون، وذلك حيث بنى داود لنفسه بيتاً، وحيث أيضاً جرى دفنه مع الملوك الآخرين، وهو الذي أطلق عليها اسم مدينة داوود، غير أن جبل أكرأ، الذي صلب فوقه الرب، قد قام خارج أسوار المدينة، على الجانب الغربي، وتولى على كل حال إيليو س هدرينوس إعادة بناء المدينة التي هدمها تيتوس وفسبسيان، وقد وسعها كثيراً، بحيث أنها شملت موضع الصلب والضريح، وباتت هذه الأماكن داخل إطار الأسوار، ومع هذا بقي الشكل العام كما كان من قبل، وبهذا أكون قد فرغت من اقتباس كلمات اللورد جيمس.

ودعونا الآن نتولى وصف أبوابها، ووصف الجبال المحيطة بها، مع أهم أماكنها البارزة:

وكان أول أبوابها هو باب داوود، وهو الباب الذي كان موجوداً في الجهة الغربية لجبل صهيون، وذلك حيث توجد قرنة المدينة التحتا، في مقابل برج داوود، عند المكان الذي يتشعب فيه مجرى السيل، ويفصل أحدهما عن الآخر، حيث اتجه أولهما نحو الشمال، واتجه الآخر نحو الشرق، وكان هناك بناء مقنطر قبل الباب، إنما على الجانب الأقصى من الوادي، الذي من خلاله كان الطريق يقود إلى خارج المدينة، وعلى الجانب الأيمن لهذا البناء المقنطر شق يهوذا نفسه على شجرة جميز، وكان هذا الباب يعرف باسم باب السمك، لأن من خلاله يمر الطريق من يافا واللد، وشاطئ البحر، الذي اعتادوا على جلب السمك عبره،

وعرف هذا الباب أيضاً باسم باب التجار، لأن من خلاله مرّ الطريق إلى بيت لحم، وحبرون، وغزة، ومصر وإثيوبيا، كما أطلق عليه اسم باب داوود، لأن برج داوود مشرف عليه، وكذلك مدينة داوود مطلة عليه.

وكان الباب الثاني الذي تلا في التعداد موجوداً في الجانب نفسه من السور — أي أنه متجه نحو الغرب — غير أنه كان على مسافة ضئيلة إلى الشمال من الأول، وقد عرف باسم الباب القديم، لأنه كان موجوداً هناك منذ أيام اليوسيين، وكان يطلق أيضاً عليه اسم باب القضاء، لأن أحكام القضاء كانت تصدر أمامه، وبعد إصدار الأحكام كان يجري تنفيذها خارج هذا الباب، وخارج هذا الباب جرى صلب الرب، لأن البلاط، أو موضع القضاء، في داخل سور المدينة القديم، وفي السور الجديد الذي أحاط بضريح الرب بالسور الجديد، واسم هذا الباب الآن باب القديس اسطفان، حيث أن هناك باباً جديداً حل محل القديم، وأطلق عليه الاسم نفسه، وهو يقود إلى شيلوه وبيت حورون، وجبعون.

ويقوم الباب الثالث إلى الشمال من هذا، ويدعى باسم باب إفرائيم، لأن الطريق إلى جبل إفرائيم يمر من خلاله، وعند هذا الباب يلتقي السور الجديد الذي بني للإحاطة بضريح الرب، لأنه رجم خارج هذا الباب، وهو يقود إلى: شكيم، والسامرة، والجليل.

ويقوم الباب الرابع إلى الشرق من هذا الباب، وهو موجود عند قرنة المدينة فوق جدول قدرون، واسمه باب الزاوية، ويدعى أيضاً باسم باب بنيامين، لأن من خلاله يمر الطريق إلى عناتا وبيت إيل، والقفار، والمدن الأخرى القائمة في ديار (سبط) بنيامين.

وكان الباب الخامس قائماً إلى الجنوب من هذا الباب، وكان اسمه باب تلة الروث، أو باب الروث، وهو قائم فوق جدول قدرون،

والطريق من خلاله يقود إلى الصحراء، ولم يكن هذا الباب كثير الاستخدام، بسبب أن الأماكن التي يقود إليها كانت غير حضارية.

ومثل هذا كان الباب السادس إلى الجنوب من هذا الباب، وكان اسمه باب الضأن، لأن الأغنام التي كانت تستخدم للأضاحي في الهيكل، كانت تساق من خلاله، وذلك بسبب وجود بركة الضأن على مقربة منه، وكان يعرف أيضاً باسم باب الوادي، بسبب أن الطريق الذي يمر من خلاله يقود إلى وادي شعفاط، وضحريخ العذراء المباركة قائم على بعد رمية حجر عنه، وكان يشرف عليه البرج الذي اسمه برج فاسيلوس، الذي بني من قبل الملك هيرود، وعرف أيضاً باسم باب بئر التين، لأن في خارجه كان هناك بئر اسمه بئر التين، ويمضي الانسان عبر هذا الطريق إلى بيت عنيا، وإلى جبل الزيتون، وإلى الأردن.

والباب السابع قائم أيضاً إلى الجنوب من هذا الباب، ويعرف أيضاً باسم الباب الذهبي، وهو قائم فوق جدول قدرون، غير أنه كان موجوداً في ساحة الهيكل، لكن انتبه أن هذا لم يكن باباً للمدينة، بل باباً للهيكل، وعلى كل حال يمر من خلاله طريق يقود بانقطاع قصير من جبل الزيتون على الطرف الأقصى لوادي شعفاط، يمر من خلال قنطرة، وفي داخله كان باب الهيكل الذي عرف باسم الباب الجميل، ومن هذا الباب هناك طريق يقود إلى بيت عنيا، وأريحا والأردن.

وكان الباب الثامن إلى الجنوب من هذا الباب الذي قام فوقه، وهو كان قائماً في الوادي فوق جدول قدرون، فيما بين جبل صهيون، وجبل الهيكل، وكان اسمه باب نبع سلوان، أو باب الماء، لأنه كان يقود إلى نبع وبركة سلوان للاستحمام، ووادي جهنم، وحق الدم، وحاديقة الملك، وعلي أن أميل إلى الاعتقاد أن هذا كان باب الروث، وليس الباب المتقدم ذكره، وذلك بسبب وضعه، كما أنني لأعتقد أنه وجد المزيد من الأبواب في القدس، لأنه من خلال وضع المدينة، لم تكن

هناك حاجة إلى المزيد منهم حول جبل صهيون كله، وإذا كان قد توفرت الحاجة إلى باب، لم يكن من الممكن امتلاك باب هناك، لأن شكل الأرض التي هي شديدة الميلان من كل جانب، تحول دون ذلك.

وكانت الجبال من حول القدس كمايلي:

كان هناك إلى الشرق من المدينة جبل الزيتون، المشرف عليها، ذلك أنه أكبر وأعلى من الجبال الأخرى، الموجودة من حولها، وقد بنيت على قمته كنيسة، فوق المكان الذي صعد منه الرب إلى السماء، وهذا المكان في وسط الكنيسة، وفوقه توجد فتحة، حيث يبقى الفراغ الهوائي الذي من خلاله صعد مفتوحاً أيضاً، وصحيح أن الصخرة التي وقف عليها أثناء صعوده، والتي تحتوي على طبقات قدميه، قد وضعت هناك للذكرى، أيضاً إن هذه الصخرة قد وضعت بقصد إغلاق الباب الشرقي، لكن من دون ملاط، لذلك يمكن للإنسان أن يضع يده بسهولة، ويلمس طبقات القدمين، غير أنه يستطيع رؤيتهم، ويوجد على الجهة الجنوبية بيعة متصلة بهذه الكنيسة، حيث دفنت في داخل كهف هناك بيليجيا، التي كانت محظية معروفة، عليها أضفى الرب مراراً نعمة المغفرة، وجعلها مثلاً للمذنبات، ولقد قيل بأن ما من إنسان يعيش مع ذنب عظيم يمكنه أن يمر فيها بين ضريحها وبين السور بجانبها، لكنني لأعرف مدى صحة هذا، فلقد رأيت كثيرين يمرون من هناك.

ويوجد على هذا الجبل نفسه، على أقل من رمية حجر نحو الجنوب، كنيسة أخرى، اسمها بيت الخبز، فهناك علم الرب حواريه الصلاة، وكتب صلاة الرب على صخرة هناك.

وجبل العدوان مجاور لجبل الزيتون في الجنوب، وهو مرتفع إلى حد ما، والجبلان منفصلان عن بعضهما بوساطة واد قائم بينهما، وأطلق عليه اسم جبل العدوان بسبب أن سليمان أنشأ هناك هيكلًا لمدوخ

Moloch في مواجهة الهيكل، وبذلك أثار غضب الرب.

وعند سفحه في الجهة الجنوبية، يوجد موضع توفت، أو جهنم Ge-hinnon وإلى الجنوب الشرقي من المدينة يقوم حقل حق الدم، مع جبل مرتفع جداً فوقه، يدعى بالاسم نفسه، وهو يغطي تقريباً جميع الطريق الممتد في مقابل الجانب الجنوبي من المدينة.

وحقل القصار متصل بهذا الحقل من الجهة الغربية، ويوجد فوقه جبل يساوي بالارتفاع الجبل المتقدم الذكر.

ويوجد على الجهة الغربية من المدينة جبل جيحون، وهو متصل بحقل القصار، هذا ويمر بينهما الطريق القادم من باب داوود، ويشرف جبل جيحون هذا على الطرف الغربي من المدينة، لكن ارتفاعه يتناقص بالتدرج، حتى يصبح في مقابل الباب القديم ليس كبير الارتفاع.

وعلى كل حال، الأرض باتجاه الغرب والشمال هضبية، وذلك امتداداً حتى ضريح هيلانة، القائم في مواجهة باب بنيامين، الذي يتجه نحو جدول قدرون ويشرف عليه.

وعبر جدول قدرون، في الجهة الشمالية من جبل الزيتون، هناك جبل آخر، هو أيضاً مرتفع جداً مثله مثل جبل الزيتون، وهو على بعد أربع غلوات عن القدس، وهناك بنى سليمان هيكلاً لشمس، وهو وثن المآبين، وقد بني عليه في أيام المكابيين والرومان قلعة، انزعج منها سكان القدس وغضبوا كثيراً، وماتزال آثارها هناك حتى هذا اليوم.

وهذه الجبال جميعاً على مقربة من أسوار المدينة، لكن ليس كثيراً إلى حد يمكن فيه الهجوم على المدينة منهم بواسطة الآلات الحربية.

وليكن الذي قلناه عن وضع القدس، فيه كفاية، وكذلك عن أبوابها وعن الجبال التي من حولها، ودعونا نلتفت عائدتين إلى وصف المتبقي

من البلاد.

٩ — وعلى بعد فرسخين نحو الشمال — الغربي للقدس يوجد جبل شيلوه [سيلون]، الذي اسمه الآن جبل القديس صموئيل، وهو أعلى الجبال في الأرض المقدسة، وقمته أعلى من قممهم جميعاً، وهو على بعد أكثر من فرسخ من جبعة شاؤول، وأقام هنا لمدة طويلة تابوه الرب، وخيمة العهد، أي العهد الذي عمله موسى في القفار.

وعلى بعد فرسخ من هناك توجد جبعة [الجيب]، وهي مدينة بنيامين، وهي قائمة على الجبل نفسه، وعلى هذا كان مقدّم الأماكن المرتفعة قد وجد — كما قيل — هناك، وقد أرسل أهل هذه المدينة رسلاً إلى يوشع في الجلجال، وأقاموا سلماً معه بالبراعة، حيث تظاهروا بأنهم كانوا يسكنون في بلاد نائية.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الغرب من القدس، توجد عمواس، حيث سار الرب مع الحواريين كغرباء، وصار معروفاً بالنسبة لهم عن طريق كسر الخبز، واسمها الآن نيكوبولس Nicopolis .

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الغرب من القدس، وعند سفح جبل شيلوه، توجد بيت حورون التحتا (بيت عور التحتا)، التي ورد ذكرها في سفر المكابيين (الأول: ٧/٣٩).

وعلى بعد أربعة فراسخ ونصف الفرسخ إلى الغرب من القدس، وعلى الطريق إلى اللد، توجد قرية بيت جيريم (عرما)، التي كانت إحدى مدن الجبعونيين، حيث أقام التابوه لمدة عشرين سنة، بعدما أخذ إلى بلاد الفلسطينيين، وفي الغرب من قرية جيريم توجد لكش (تل الحسي)، التي كانت أيضاً إحدى مدن الجبعونيين، وقد حوصرت من قبل سنحريب في أيام حزقيال.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب، أو ما يقارب ذلك، من قرية بيت

جيريم، توجد بلدة بيت شمش، التي علينا أن نميزها عن الأخرى الموجودة في ديار سبط نفتالي، والتي عرفت باسم بيت شمش اليهودية [عين شمش]، مع أنها في الحقيقة، قد كانت في ديار سبط دان.

وإلى الحقل العائد لتلك البلدة تولت البقرتان الحلوبان جر العجلة التي كان عليها تابوت الرب، وذلك عندما كان أهالي بيت شمس يحصدون موسم الحنطة في الوادي، وقد مات سبعون ألفاً من الناس، لأنهم رأوا تابوت الرب مكشوفاً.

وعلى عشرة فراسخ من القدس توجد راماثيم زوفيم (الرملة)، التي كانت جزئياً في ديار سبط بنيامين، وجزئياً في ديار سبط إفرائيم، وهي قائمة فوق جبل إفرائيم، وبناء عليه أطلق هذا الاسم على السهل، ومهما يكن من أمر، هو ليس جبلاً بل سهلاً، وقد عرفت باسم أريمथा - Arimathea، فمنها جاء يوسف المستشار الشريف، الذي تولى دفن الرب، وكان النبي صموئيل قد ولد هنا ودفن أيضاً هنا، وهي تعرف في هذه الأيام باسم الرملة.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الغرب من الرملة تقوم مدينة يافا، التي منها ذهب يونه على ظهر سفينة إلى ترشيش، أي إلى جزائر البحر، منذ حضور الرب.

ودون يافا توجد بينا، التي هي ميناء آخر لليهودية على بعد فرسخين، نحو الجنوب، وقد استولى يهوذا المكابي على هذا الميناء وأحرقه.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من القدس توجد بيت لحم، المدينة التي تشرفت بميلاد داوود الحقيقي، وهي قائمة على جهة يسار الطريق الذي يقود إلى حبرون، إنما على بعد رمية سهم عن الطريق، وقبل هذا، يصل الانسان — على كل حال — إلى ضريح راحيل، على جهة اليمين لطرف الطريق، وهناك في مقابل بيت لحم برج عدر، أو القطعان، حيث

أقام يعقوب لبعض الوقت، وأطعم قطعانه بعد وفاة راحيل، وفي هذا المكان، عندما كان الرعاة أيضاً يجرسون قطعهم خلال الليل، في ساعة ميلاد المسيح، رأوا الملائكة وسمعوهم وهم يغنون «المجد للرب في الأعالي»، وكانوا يبشرون بميلاد المخلص.

وتقوم بيت لحم فوق جبل، هو مرتفع بعض الشيء، لكنه ضيق، ويمتد من الشرق إلى الغرب، ولها باب على الجانب الغربي، ويوجد هناك على مقربة من الباب البئر الذي تشوق داوود إلى الشرب منه، عندما كان محاصراً هناك.

ويوجد عند النهاية الشرقية للمدينة، تحت الصخرة القائمة قرب سور المدينة، مابداً — تبعاً لعادات تلك البلاد — مكاناً جرى استخدامه بمثابة اسطبل، تمّ نحت معلقه بالصخر، وذلك حسب عادات تلك المناطق، وولد يسوع المسيح، شمس العدالة المشرقة على الدنيا، من أم عذراء، وباختياره لمثل هذا المكان القدر، لأن يلد فيه، ولأن يشرق منه، أظهر بميلاده بأنه سوف يزيل قذارة العالم وظلامه.

وعلى مقربة من تلك الصخرة المتقدمة الذكر، توجد صخرة أكبر، وذلك على بعد أربعة أقدام عنها، كان تحتها المعلق الذي مدد فيه الطفل الحلو، المولود حديثاً، أمام الثور والأتان، وهو ملفوف بأقمشة بالية، هذا ويبدو لي من المؤكد أنه كان هناك في البداية صخرة واحدة، لكن جرى فتح طريق في وسط الصخرة، من خلاله يذهب الانسان إلى سدة هذه البيعة، ويذهب الانسان من الكنيسة إلى مكان ميلاد الأكثر حلاوة بالنزول بالدرجات، وذلك لأسباب جرى شرحها أعلاه، وهذه البيعة مغطاة بأكملها بأعمال الفسيفساء، ومبلطة بالرخام، وبنيت بسخاء كبير، وفوق المكان الذي ولدت فيه العذراء المباركة، من الممكن تلاوة قداس هناك، فوق لوح من الرخام ممدد هناك، ومن الممكن أن يرى الانسان هناك الصخرة العارية التي ولد عليها المسيح، ومثل هذا ترك

جزء من المعلف، الذي ولد فيه المسيح، غير مغطى، ويجري تقبيل هذين المكانين بتقوى عظيمة من قبل المؤمنين، ومررت في إحدى الليالي بهذين المكانين، وتوليت تقبيل المكان الأول ثم المكان الآخر، وأنا لم أشاهد، أو سمعت أحداً قط يقول بأنه رأى كنيسة أكثر قداسة من هذه في أي مكان في العالم، ويوجد هناك أربعة صفوف من الأعمدة تستحق الإعجاب، ليس فقط بسبب عددها، بل بسبب حجمها الرائع، فضلاً عن هذا، فإن صحن الكنيسة كله الموجود فوق الأعمدة حتى السقف، مزين بأجمل أعمال الفسيفساء [حيث عرض فيها جميع أحداث التاريخ منذ خلق الدنيا حتى قدوم الرب إلى يوم الحساب]، ومثل هذا فإن الكنيسة كلها مبلطة برخام من مختلف الألوان، وهي مزينة برسوم تحتوي جميع أحداث التاريخ منذ خلق الدنيا حتى قدوم الرب يوم الحساب، وقال رجل بأن تكاليف هذه الرسوم لا يمكن تقديرها، ويمكن للإنسان أن يكتب أشياء تفوق التصور حول عمل هذه الكنيسة، ويجل المسلمون جميع الكنائس المكرسة للعدراء المباركة، لكنهم يجلون هذه الكنيسة فوق الجميع، ورأيت في هذه الكنيسة معجزة تستحق الذكر، فعندما رأى السلطان التزيينات الثمينة جداً، وألواح الرخام وأعمدة الكنيسة، أمر بنزعهم جميعاً وحملهم إلى القاهرة، ذلك أنه رغب ببناء قصر بهم لنفسه، وباللمعجزة، فعندما جاء العمال مع أدواتهم، وكان السلطان نفسه مع آخرين كثير واقفاً هناك يراقب، خرج من الجدار السليم الأصبم، الذي لا يمكن للإبرة أن تحرقه، ثعبان بحجم هائل، وقام بعض أول لوح وصل إليه، فتحطم اللوح، وفعل الشيء نفسه باللوح الثاني، ثم بالثالث فالرابع، حتى الثلاثة عشر، وقد ألم بالألواح جميعاً الشيء نفسه، واستولت الدهشة على الجميع، فأقنع السلطان نفسه مباشرة ونحلى عما نواه، وهنا اختفى الثعبان، وهكذا بقيت الكنيسة، وما زالت باقية حتى هذا اليوم، كما كانت من قبل، ومع هذا من الممكن رؤية بعض آثار جسد الثعبان حتى هذا اليوم على كل

لوح مرّ عليه، فقد بدت الألواح وكأنها قد أحرقت بالنار، وفوق هذا كله يبدو أنه أمر خارق، كيف تمكن هذا الشعبان من النفاذ من خلال الجدار، الذي هو ناعم وملمع كأنه زجاج.

وعند الباب الشمالي لهذه الكنيسة هناك دير مغلق للرهبان، وذلك حيث يوجد بئر القديس جيروم، وفراشه، وضريحه، وغرفة المخزن العائد للدير، الذي نقرأ بأن القديس جيروم كان رئيسه، ويمكن أن يرى على الجانب الجنوبي للسدة مكاناً — كما قيل — جرى فيه قتل شطر كبير من الأبرياء ودفنهم.

وعلى بعد حوالي رمية حجر إلى الشرق من هذه الكنيسة هناك كنيسة القديستين: باولا، ويوستوخيوم، وهناك أيضاً ضريحهما.

وعلى بعد نصف فرسخ إلى الغرب من بيت لحم توجد قرية اسمها بزق Bezek التي فيها وفرة من النبيذ الفاخر، الذي لا يمكن أن تجد أفضل منه في البلاد، والناس في هذه القرية مسيحيين جميعاً، وهم يتولون العناية بكرومهم وبكروم قرى جيرانهم في وادي رفائيم، وذلك حتى جدول أشكول، [العدد: ١٣ / ٢٤]، وقد تسلموا من السلطان امتياز السكنى هناك والعناية بهم، ومنهم يدفعون إلى السلطان مبلغاً كبيراً.

وعلى بعد ستة فراسخ شرقي بيت لحم، على شاطئ البحر الميت، يوجد جبل عين الجدي الذي تقدم وصفه أعلاه.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من عين الجدي، توجد هضبة أخيلا Achila، وهي التي عرفت فيما بعد باسم مسعده، وذلك عندما بنى هيرود هناك قلعة لاترام، ويحكى أنه هناك أقام داوود مختبئاً، عندما هرب من أمام شاؤول.

وعلى بعد فرسخين عن بيت لحم، وباتجاه أخيلا، توجد مدينة تقوع، وهي قائمة فوق جبل، وهذه كانت مدينة النبي عاموس، الذي جرى

دفنه هناك أيضاً، وعاموس هو الذي ضربه آحازيا ملك القدس، أثناء الليل، ضربة على صدغيه وقتله.

وبجوار هذه المدينة، توجد قفار تقوع.

وفيما بين تقوع وعين الجدي يمتد وادي بريكوت، حيث تحارب يهوشافاط، ملك اليهودية مع الأدوميين، وبني عمون، وهزمهم.

وعلى بعد فرسخ عن هناك، توجد قلعة بنيت من قبل هيرود الكبير، واسمها هيروديوم [عند جبل الفريديس]، وهي قائمة فوق أرض مرتفعة، وفيها — تبعاً ليوسفوس — جرى دفن هيرود نفسه.

وعلى خمسة فراسخ إلى الجنوب الشرقي من تقوع، توجد مدينة الزيف [تل الزيف]، وذلك قرب قفار تحمل الاسم نفسه، فهناك — حسبنا قرأنا — أقام داوود مختبئاً.

وبجوار هذه المدينة، في جهة اليمين، توجد قفار [تل] معين، وذلك حيث يوجد جبل الكرمل، وأيضاً حيث سكن نابال الكرمل، الذي طرد رسل داوود.

وبجوار قفار معين، في جهة الجنوب، هناك بلاد أمالك Am- alek ، وفي مقابل لسان للبحر الميت، توجد قادش بارينا (القفار)، التي منها أرسل موسى اثني عشر جاسوساً.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من بيت لحم، على الطريق الذي يقود إلى حبرون، يوجد بيت — حكريم Haccerem، وهي قرية قائمة فوق بقعة مرتفعة، وبجوارها في الجنوب هناك قرية أخرى اسمها رامة (رامة الخليل)، وهي على درجة عظيمة من الارتفاع، وقد وقفت هناك فوق رابية عالية مع كثير من المرافقين، ورأيت جميع بلاد العربية حتى جبل سعير، وجميع الأماكن الموجودة من حول البحر الميت،

وكذلك جميع مخابيء داوود، وأيضاً الأردن حتى شطيم (عدد: ١/٢٥)، وجبل عبريم، ورأيت باتجاه الغرب جميع شاطيء البحر المتوسط من يافا إلى غزة، وبير السبع، حتى فيافي شور Shur ، وزيادة على هذا جميع بلاد الفلسطينيين من الرملة مروراً بغث Gath ، وعقرون، وأشدود، وبيننا وعسقلان، مع جميع السهل الموجود عند سفح المنطقة التلية لليهودية.

وعلى بعد أكثر من فرسخ من رامه، وعلى جهة اليمين، قرب الطريق السلطاني العام الذي يقود إلى حبرون، توجد ممرا، حيث سكن إبراهيم لمدة طويلة، وحيث عندما جلس أمام بيت خيمته إلى جانب بلوطة ممرا، رأى الرجال الثلاثة واقفين إلى جانبه، وهكذا نجد حسبنا قرأنا في سفر التكوين، بأن شجرة البلوط ماتزال مرئية حتى هذا اليوم، أمام باب خيمة إبراهيم، وعلى كل حال، لقد ماتت الشجرة القديمة، ونبع من جذورها شجرة بلوط جديدة.

وعلى بعد نصف فرسخ من بلوطة ممرا، وعلى جهة اليمين، إلى جانب الطريق، توجد حبرون، وهي المدينة القديمة، التي عرفت مرة باسم «قرية أربعة»، فهناك حكم داوود لمدة سبع سنوات، وكانت قائمة فوق يمين جبل مرتفع، وحصين، لكنها الآن مدمرة كلياً، وخرائبها كثيرة، ويبدو أنها كانت مدينة جلييلة!

وعلى بعد رمية سهم جنوبي هذه المدينة، توجد حبرون الجديدة، وقد بنيت فوق المكان الذي كان فيه الكهف المزدوج، المدفون فيه: آدم، وحواء، وإبراهيم، وسارا، واسحق، ورفقة ويعقوب، وليه، وقد بنى المسلمون حصناً قوياً جداً حول الكهف المزدوج هذا، وفي داخل هذا الحصن هناك الكنيسة الكاتدرائية، ولقد رأيت في أسوارها حجارة مقياس كل منها ستة وعشرين، وثمانية وعشرين، وثلاثين قدماً، وأنا لم أشاهد مكاناً بمثل هذه الحصانة، قد بنى فوق أرض مسطحة بلا ماء،

ولقد زرت قبور الآباء هناك، وأمضيت ليلة في ذلك المكان.

وعلى بعد رمية سهم إلى الغرب من الكهف المزدوج، يوجد حقل دمشق، الذي من ترابه جرى تشكيل آدم، وفي الحقيقة التربة في هذا الحقل شديدة الحمرة، ومن الممكن قولبتها مثل الشمع، وقد أخذت منها كمية كبيرة معي، ومثل ذلك يفعل الحجاج الآخرون والمسيحيون الذين يزورون هذه الأماكن، فضلاً عن هذا يحمل المسلمون هذه التربة على ظهور الجمال إلى مصر، وأثيوبيا، والهند، وأماكن أخرى، ويبيعونها مقابل توابل ثمينة، ومع هذا يبدو هناك أن كل ما حفر هو مجرد حفرة صغيرة في ذلك المكان، ويقال إنه مع نهاية السنة، قد تكون حفرة كبيرة قد حفرت، نجدها قد امتلأت بشكل إعجازي ثانية، ولقد نسيت أن أبحث عن مصداقية هذا الأمر، والذي يمكنني قوله هو هذا فقط: فعندما كنت هناك، كانت الحفرة حفرة صغيرة، إلى حد أنه كان من الصعب لأربعة رجال الجلوس فيها، ولم تكن أعمق من حد الوصول إلى كتفي، ويقال بأن ما من حيوان يهاجم أو يعتدي على الذي يحمل أياً من هذه التربة، وأنها تحمي الإنسان من السقوط، وهذا الوادي القائم في مقابل حبرون خصب جداً وجميل.

وعلى بعد رمية سهم إلى الجنوب من المكان الذي تحفر فيه الأرض، يوجد الموضع الذي قتل فيه قاييل أخاه هابيل، وكذلك على بعد رميتي سهم إلى الغرب من المكان الذي تحفر به الأرض، وعلى رابية على طرف حبرون، هناك كهف في الصخور، هو المكان الذي بكى فيه آدم وحواء على ابنتها هابيل لمدة مائة سنة، ففي الكهف يوجد فراشها حتى هذا اليوم، ونبع ماء في داخل الكهف، منه كانا يشربان.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من حبرون توجد دبير (Debir) عند الظاهرية) أو قرية سفر، أي مدينة كتاب، التي استولى عليها عثليل بن قناز أخو كالب، فأعطاه عكسة ابنته زوجة (يشوع: ١٥/١٥ — ١٧).

وعلى بعد فرسخين إلى الشمال من حبرون، توجد
نيل [ناحال] إشكول، التي معناها جدول العنقود، أو وادي الدموع،
الذي منه جلب الجواسيس الغصن مع عنقود واحد من العنب، وقد
حملوه بين اثنين على عصا، [العدد: ١٣/ ٢٣].

وعلى بعد نصف فرسخ إلى اليسار من هذا الوادي، يجري
الجدول [عين حنيناً]، الذي عمّد فيه فيليب الخصي.

وعلى بعد أربعة فراسخ من نيل إشكول، باتجاه القدس، يوجد بيت
زكريا [عين كارم]، الذي دخلته العذراء المباركة، حيث حيّت هناك
إيزابل، وهناك أيضاً ولد القديس يوحنا المعمدان.

وعلى بعد فرسخين إلى الشمال من هذا البيت توجد بيت نوبة، وهي
مدينة الكهنة، ففيها أعطى الكاهن أبيالك إلى داوود سيف جالوت
صاحب غث Gath .

وعلى بعد أكثر من فرسخ عن بيت لحم، على الطريق الذي يقود إلى
تقوع، يوجد ضريح القديس كريوث Karioth (القديس شارتون)،
راعي دير (خريتون) وذلك مع رهبانه، الذين فارقوا الحياة جميعاً معه،
وقد اعتادت حشود من الناس على زيارة هذا المكان.

هنا بداية القسم الأول من الربع الجنوبي

١٠ — ويبدأ القسم الأول من الربع الجنوبي من هنا، مثله في ذلك
مثل بقية الأقسام، ونجد أولاً أنه على بعد أربعة فراسخ عن عكا، تأتي
مدينة حيفا، وذلك عند سفح جبل الكرمل.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من حيفا توجد قلعة
الحجاج (عثليت) وهي بأيدي فرسان الداوية، وهي من أكثر الأماكن
حصانة بين جميع الأماكن التي استولى عليها الصليبيون، فهي قائمة في

قلب البحر، ومحاطة بأسوار، ودفاعات أخرى مثل السواتر الحصينة والشرافات والأبراج، حتى أن العالم كله قد يعجز عن الاستيلاء عليها. وعلى بعد فرسخ عن حيفا، على جهة اليسار للطريق إلى عثليت، وفوق جبل الكرمل، يوجد كهف إيليا ومسكن يوشع وبثره، وذلك حيث عاش أبناء الأنبياء، وحيث يعيش الآن الرهبان الكرمليون، فلقد سكنت معهم هناك.

وعلى بعد خمسة فراسخ من قلعة عثليت، توجد قيسارية، التي هي حاضرة فلسطين، والتي كانت فيما مضى مقر رئاسة أساقفة، وكان اسم هذا المكان أولاً دور Dor، وبعد ذلك فرغوس ستراتون Pyrgos Stratonis، وقد أعاد هيرود الكبير عمارتها، وسماها قيسارية، وقد كتب يوسفيوس مطولاً حول أبنيتها ودفاعاتها، ويمجدها من جهة الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق سباخ لمياه عذبة عميقة، فيها أعداد كبيرة من التماسيح، ووقعت في هذا المكان في خطر عظيم، لكن الرب برحمته أنقذني، وللمدينة وضع دفاعي قوي، لكنها في هذه الأيام مدمرة كلياً، وكان لفيليب وبناته دار هناك، ومثل هذا فيها عمّد بطرس قائد المائة كورنيليوس، الذي كان أول أسقف لقيسارية، فضلاً عن هذا، في هذه المدينة حاجج بولص براءة وفصاحة عظيمة ضد الخطيب تيرتولوس Tertullus، بحضور الملك أغريبا وفيلكس.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من قيسارية، توجد قرية اسمها أرسوف، وقد عرفت من قبل باسم أنتياتر، صدوراً عن أنتياتر، والد هيرود الكبير، وكان هذا المكان بأيدي فرسان الاستتارية، غير أنهم فقدوه، ومع هذا يدفعون سنوياً مبلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار ذهبي إلى صاحب أرسوف وإلى ورثته.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من أرسوف توجد مكمثة Mic-

methah، التي اسمها الآن قاقون، وهي قائمة فسوق السهل الموجود عند سفح جبل إفرائيم، وذلك ليس بعيداً عن جبل شارون، وقد شحن المسلمون هذا المكان بالجند لمراقبة قلعة عثليت.

وعلى بعد أربعة فراسخ من هذه توجد بلدة سارون التي ورد ذكرها في أعمال الرسل: [٣٥ / ٩].

هذا والمسافة فيما بين أرسوف ويافا هي ثمانية فراسخ، ويافا هي القائمة على شاطئ البحر، والتي تقدم وصفها أعلاه.

وعلى بعد أربعة فراسخ من يافا توجد غث (قرب بينا أو ابلين)، وهي قائمة ليس بعيداً عن للبحر، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين.

وعلى بعد فرسخين عن غث توجد بيتشمش [عين شمس] اليهودية، التي تقدم وصفها.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من بيتشمش، وليس بعيداً عن البحر، توجد عكرون (عكر)، التي هي المدينة الثانية بين مدن الفلسطينيين الخمس، وهي الآن قرية صغيرة.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من عكرون توجد أشدود، التي هي المدينة الثالثة بين مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي الآن قرية صغيرة.

وعلى بعد فرسخين عن يافا توجد اللد أو ديوسبولس، التي تقدم وصفها أعلاه، وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من هذه توجد لبنه، التي كان يوشع قد استولى عليها [يشوع: ١٢ / ١٥]، والتي حاصرها سنحريب، وهناك على بعد فرسخ من هنا، على الطريق إلى جبعة، توجد بلدة عزيقة وبلدة مقيدة، وهاتان البلدتان استولى عليهما يوشع بعدما فرج عن أهل جبعة، وهنا المكان الذي اختبأ فيه الملوك الخمسة داخل كهف [يشوع: ١٠ / ٥ - ٢٥]، وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق من ها

هنا، وليس بعيداً عن بيت نوبه توجد شويكة اليهودية، وذلك على مقربة من وادي تربنت، وذلك حيث قتل الفتى داوود جالوت صاحب غث بمقلعه وحجره.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من بيت نوبه توجد عمواس، التي تعرف الآن باسم نيكوبولس.

وعلى بعد فرسخ ونصف الفرسخ عن عمواس يمضي الانسان عبر وادي رفائيم، مروراً بجانب بيت زكريا، الذي يودعه المسافرون إلى القدس على يسارهم، وعلى فرسخ ونصف الفرسخ من ذلك البيت هناك قلعة حصينة جداً، هي قلعة بيت صور(صوبا)، القائمة على طرف جبل في مقابل بيت سيخ وبيت لحم.

وعلى بعد ستة فراسخ إلى الجنوب من أشدود توجد عسقلان، التي كانت المدينة الرابعة بين مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على شاطئ البحر، على شكل نصف دائرة، وهي محصنة بشكل قوي جداً.

وعلى بعد خمسة فراسخ إلى الجنوب من عسقلان توجد مدينة غزة، على شاطئ البحر، وهي تعرف بشكل عام باسم تل الجزر Gazara ، (تداخل).

وعلى بعد خمسة فراسخ من غزة توجد بئر السبع، التي اسمها الآن جبلين، وهي تشكل حدود اليهودية وأرض الميعاد، وذلك في الجنوب.

وبعد هذه الأجزاء من أرض الميعاد التي وقعت في حصة سبط يهوذا، تأتي القفار الكبيرة، التي تمتد حتى نهر مصر، وأقام بنو إسرائيل في هذه القفار لمدة طويلة، ينتقلون من مكان إلى مكان.

وليكن ما قيل عن البلاد وعن الأماكن التي فيها، فيه كفاية.

طول الأرض المقدسة وعرضها

١١ - دعوني أضيف الآن عرضاً عن طولها وعن عرضها محسوباً وفق أفضل ما أستطيعه.

وعليك أن تعلم، بعدئذ، أن طول الأرض المقدسة يبدأ من سفح جبل لبنان، حيث تقوم قيسارية فيليب، ويمتد جنوباً حتى بير السبع في اليهودية، الموجودة في الجنوب، وطولها وعرضها هو حيث سكنت الأسباط الاثني عشر، وهو ليس عظيماً جداً، وذلك وفقاً لأفضل ملاحظته عندما رأيتها بأعينني، ومشيت فوقها بقدمي، وقد بدت لي من حيث الاتساع بقدر ماسأين فيمايلي، إنما لا بد من القول أنني مضيت فقط قليلاً فيما وراء الأردن، ولم أعبّر خلال بلاد السبطين ونصف السبط، ولهذا لم أقم بذكر ذلك وتبينانه، ويبدو لي أن طولها الذي يمتد من رأس بحر الجليل في الشمال حتى جدول أرنون، حيث تنتهي، هو حوالي سبعة وأربعين فرسخاً، وأما بالنسبة لبلاد الأسباط العشرة على هذا الجانب من الأردن، فقد تولى يوسفوس وصف طولها وعرضها:

فلقد امتلك سبط يهوذا المنطقة الفوقا، التي تمتد طولياً من مصر إلى القدس، وقد قيل إنها تحتاج إلى سفر اثني عشر يوماً، ويمتد عرضها من البحر الميت حتى البحر المتوسط في الغرب، والمسافة هي خمسة عشر فرسخاً.

وأعطي سبط شمعون شطراً من حصة سبط يهوذا، هو القريب من مصر، فوق جبل عبريم.

وحصل بنيامينون على البلاد الواقعة فيما بين الأردن والبحر المتوسط، وطولها خمسة عشر فرسخاً، وعرضها من القدس إلى بيت إيل (بيتين) ما يساوي أربعة فراسخ.

وحصل سبط إفرايم على البلاد الواقعة فيما بين نهر الأردن وجدره،

وطولها خمسة عشر فرسخاً، وعرضها حتى السهل الكبير، حيث بداية الجليل، ويساوي ذلك ثلاثة عشر فرسخاً.

وامتلك نصف سبط منشا حصته على هذا الطرف من الأردن فيما بين نهر الأردن والبحر المتوسط، وطول هذه الحصنة اثني عشر فرسخاً، وعرضها حتى بيسان، ويساوي ذلك خمسة فراسخ.

وحصل سبط زبولون على ما بين الكرمل قرب جبل قاييل إلى جنسارث، وطول ذلك تسعة فراسخ، أما عرضها فهو من جبل الطور عبر وادي الكرمل، ويساوي ذلك خمسة فراسخ.

وحصل سبط أشير على جميع البلاد الممتدة من الكرمل إلى صيدا، وهي منطقة طولها عشرين فرسخاً، وعرضها تسعة فراسخ، ويمتد من البحر المتوسط إلى نعسون وكابول.

وحصل سبط نفتالي على الأجزاء الممتدة باتجاه الشرق حتى دمشق والجليل، وطولها عشرة فراسخ، وعرضها من بحر الجليل حتى لبنان، ويساوي ذلك سبعة فراسخ.

وحصل سبط دان على الوادي الممتد نحو غروب الشمس قرب البحر المتوسط، وحدوده هي أشدود في الجنوب ودورا في الشمال، وهذا كان طوله، ولم أذكر قياس عرضه.

وتبعاً للوصف المتقدم أعلاه لجميع الأرض المقدسة على هذا الجانب من الأردن، نجد أن عرضها لم يتجاوز في أي مكان الأربعين فرسخاً، أي فيما بين الأردن والبحر المتوسط، وذلك من الشرق إلى الغرب، أما طولها من الشمال إلى الجنوب فقياسه أقل من تسعين فرسخاً، فهذا كان حسب قياسي وحسابي.

واعرف أنك تمتلك هنا وصفاً صادقاً لجميع البلاد، بطولها وبعرضها،

وبكل ما هو موجود فيها.

وأعتقد أن هذا الوصف عظيم الفائدة بالنسبة لقراءة الأسفار التاريخية، لابل في الحقيقة، لجميع الكتاب المقدس، وذلك إذا ما أريد فهم ذلك كله، وأيضاً من أجل تحديد كل مكان على حده، ومعرفة كل شيء حول جميع الأماكن.

ثمار الأرض المقدسة وحيواناتها

١٢ — وعلينا أن نعرف الآن كيف كانت جميع الأرض المقدسة، وكيف هي في هذا اليوم، ذلك أنها أفضل جميع البلدان، وعلى كل حال يقول بعضهم، ممن لم يقدروها حق قدرها، العكس، فهي خصبة جداً بالنسبة للقمح، الذي ينمو بعد فلاحه قليلة ودوننا تعب، وتنتج التربة كثيراً من الأعشاب، وتنتج الشمرة، والمريمية، والسذاب، والورود، في كل مكان من قبل نفسها في السهول.

وينمو القطن فوق بعض الشجيرات، التي يبلغ طولها حتى رتبة الانسان، وهي نبتة سنوية، وأوراقها مثل أوراق الكرمة، لكنها أصغر، وينمو فوقهم جوزات في داخلهن القطن، ويتم جنيهن في أيام عيد القديس ميكائيل (٢٩ — أيلول).

وينمو قصب السكر أيضاً هناك، وهن مثل القصب العادي، لكنهن أكبر، ويوجد في قلبهن تجويف، لكنه مليء بمواد ليفية تشبه ما يجده الانسان في الأخشاب القديمة، وهذه الألياف كثيرة الماء، ويجمع القصب ويشطر طولياً ويقطع إلى قطع تساوي إحداها نصف شبر، ثم تعصر بالمعصرة، وبعد هذا يتم غلي العصير المستخرج منهن في غلايات نحاسية وعندما يصبح سميكاً يجمع في سلال ويصنع على شكل قوالب مستديرة، وعلى الفور يصبح بعد هذا جافاً وقاسياً، وهذه هي الطريقة التي يصنع بها السكر، وقبل أن يجف يترسب منه سائل لزج اسمه عسل

السكر، وهو لذيذ جداً، وجيد من أجل تحلية أنواع الحلوى، فضلاً عن هذا إنهم يقطعون القصب قطعاً كل منها بطول إصبع الانسان، ويفعلون ذلك لتكون العقدة في وسط كل قطعة، لأنه يوجد في كل قصبه سكر عدداً كبيراً من العقد، ويدفنون هذه القطع في أيام الربيع في أرض رطبة، ومن هذه القطع تنمو القصبات الجديدة، اثنتين من كل قطعة، وذلك من كل جانب من جانبي العقدة، فهذه هي الطريقة التي يزرعون بها.

وعليك أن تعرف أن الانسان لا يكاد يجد في هذه البلاد: الاجاص، والتفاح، والكرز، مثلما الحال على هذا الطرف من البحر، ويتم جلب بعض الفواكه من دمشق، غير أنها تكون لينة تماماً وطرية، بسبب الحر العظيم عندما تكون الثمار على الأشجار، وبسبب حرارة البلاد.

ومع هذا هناك بعض الفواكه التي تبقى على الأشجار طوال السنة، ويأكل الناس منهن في جميع الفصول السنة، ويجد الانسان على الأشجار في الوقت نفسه كل من أزهار الثمار، والثمار نصف الناضجة، والناضجة، والناضجة فوق حدها، وعلى هذا قد يمتلكون في بعض الأحيان، أربعة أنواع من الثمار معاً، وهذه الثمار هو ما يدعونه باسم البرتقال والليمون، وتفاح آدم، الذي يصنع منه السكان المحليون المخلل ليأكلوه مع الفراخ، والسّمك، والأطعمة الأخرى، ويصنعون أطعمة لذيذة المذاق جداً.

وهناك أيضاً فاكهة اسمها الدراق، يصنعون منها في عكا محفوظات فاخرة جداً.

وهناك أيضاً فاكهة أخرى اسمها تفاح الجنة (الموز)، وهي فاكهة رائعة جداً، وهي تنمو مثل عناقيد العنب، فيها حبات كثيرة، وحجم العنقود أحياناً وكبره مثل سلّة كبيرة الحجم، وفيه أحياناً ستون حبة أو

أكثر، وهذه الحبات مستطيلة في شكلها، وطول واحدتها ستة أصابع، وهي سميقة مثل بيضة الدجاجة، وهذه الثمرة قشرة سميقة مثل غلاف الفول، إنما ذات لون أصفر لطيف، ويرمي الانسان القشرة، ويتناول الثمرة ويأكلها، ذلك أن مذاقها كثير الحلاوة، مثلما زبدة جيدة وعسل من قرص العسل، ولا يوجد في هذه الثمار بذور، بل تؤكل كلياً، وتحتاج هذه الثمرة إلى أكثر من سنة واحدة للنمو، ولا تعيش الثمرة سوى وقت قصير — سنتان في أبعد الحدود — ثم تذبل وتجف، ولكن عندما تبدأ بالذبول تنبع منها مباشرة شجرة أخرى، ويكون ذلك من جذورها، وتفعل مثلما فعلت الشجرة الماضية، وأوراق هذه الشجرة طويلة، قد تبلغ طول إنسان، وهي كذلك عراض بحيث يمكن لورقتين أن تغلفا جسم إنسان بشكل كامل.

ويوجد في الأرض المقدسة كثيراً من الكروم، ويمكن أن يكون هناك أكثر، لكن بما أن المسلمين الذين يملكون البلاد الآن، لا يشربون الخمر — باستثناء بعضهم بشكل سري — لذلك يقومون بتدمير الكروم، باستثناء القليل منها، ربما كروم الذين يسكنون على مقربة من الصليبيين، فهم يزرعونهم من أجل الفائدة، وكروم الأرض المقدسة جيدة جداً، ومشهورة، وبشكل خاص كروم المناطق حول بيت لحم، وفي وادي رافائيم، وهكذا، وذلك من حيث حمل بنو إسرائيل العنقود على عصا، وهناك كروم جيدة حول صيدا، وعبرها على طول لبنان، وفي طرطوس والمرقب، وعلى طول شاطئ البحر، وذلك حتى كليكية وكبدوكية، واليونان، وهنغاريا، هذا ولقد رأيت شيئاً رائعاً في طرطوس، حيث أخبرني سكان البلاد هناك أنهم يجنون من الكرمة الواحدة نفسها ثلاثة مواسم في السنة الواحدة، وفق الطريقة التالية: عندما يرى في وقت الربيع الذين يتولون خدمة الكروم، أن الدالية الواحدة قد أعطت كمية من عناقيد العنب كما تفعل كل دالية وكل

غصن حسب العادة، يقومون عندها بقطع جميع الأغصان المتبقية والزائدة على العناقيد ورميها جانباً، ويفعلون هذا في آذار، وفي نيسان تنمو أغصان جديدة تحمل عناقيد من العنب جديدة، وعندما يرون ذلك يقومون بقطع جميع الأغصان التي تتعدى بنموها عناقيد العنب هذه، ويعطي جذع الكرمة في أيار أغصاناً جديدة للمرة الثالثة مع عناقيد جديدة من العنب، وعلى هذه الصورة يحصلون على ثلاثة مواسم من العنب، كلها تنمو مثل بعضها، ولكن الذي يزهر في آذار يجمع في آب، والذي أزهر في نيسان يجمع في أيلول، وما أزهر في أيار يجمع في تشرين أول، وبذلك يحصلون على ثلاثة مواسم من العنب في سنة واحدة.

والتين والرمان، والعسل والزيت، والأعشاب والخضار من جميع الأنواع مثل: اليقطين والخيار وأنواع أخرى من الثمار متوفرة بكثرة هناك.

وهناك كثرة كثيرة من الخنازير المتوحشة، والظباء، والأرانب، والحجل، والسلي، وإنه لشيء ممتع أن تنظر إليهم، وهناك أيضاً الكثير من الأسود، والدببة، ومختلف أنواع الوحوش الضارية، فضلاً عن هذا توجد أعداد لا تحصى من الجمال، والجمال وحيدة السنام، والوعول، والجواميس، وباختصار يوجد هناك جميع الأشياء الجيدة المتوفرة في العالم، والبلاد تتدفق بالحليب والعسل، غير أن الذين يسكنون هناك لا يمكن أن أدعوهم رجالاً شجعان، بل تحتوي البلاد على أسوأ الأنواع وأحطها من المدنيين، وبناء عليه إنه لأمر رائع أن تستطيع البلاد تحملهم.

أنواع الديانات في الأرض المقدسة

١٣ - يسكن في داخل الأرض المقدسة أناس من كل أمة تحت

السماء، ويتبع كل إنسان عقيدته، وفي الحقيقة لا بد أن أذكر، أن قومنا، من اللاتين، هم أسوأ من الشعوب الأخرى كلها في البلاد، وسبب هذا كما أعتقد هو أن أي إنسان اقترب إثماً أو جريمة مثل: اللواط، والنهب، والسرقه، والزنا، يعبر البحر كعقوبة، أو لخوفه على نفسه، حيث لا يتجرأ على البقاء في موطنه، ولهذا يقدم الناس إلى ها هنا من جميع الأصقاع: من ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وإنكلترا، وإسبانيا، وهنغاريا، ومن جميع أجزاء العالم، ومع هذا فإن كل الذي يفعلونه هو مجرد تغيير أجوائهم المناخية، لكن ليس عقلياتهم، لأنهم بعدما يصبحون هناك وينفقون ما جلبوه معهم، يبات عليهم كسب المال، ولهذا يعودون ثانية إلى دنسهم، ويقتربون آثماً أسوأ مما اقتربوه من قبل، حيث يتولون إسكان الحجاج الذين هم من شعوبهم في بيوتهم، وإذا لم يعرف هؤلاء الناس كيف يعتنون بأنفسهم، يثقون بهم، فيفقدون كل من مقتنياتهم وشرفهم، ويقومون أيضاً بإنجاب أولاد، يتولون تقليد جرائم آبائهم، وهكذا ينجب الآباء السيئون أبناء أعظم سوء منهم، ومن هؤلاء ينحدر أحفادهم الأكثر شروراً وفساداً، وهؤلاء يدوسون على الأماكن المقدسة بأقدام ملوثة، ولهذا السبب كان ما وقع، هو أنه لذنوب السكان في البلاد ضد الرب، تعرضت البلاد نفسها، وموضع مخلصنا إلى العار والشنار.

وإلى جانب اللاتين عدد كبير آخر من مختلف الأجناس، من ذلك على سبيل المثال: المسلمون، الذين يؤمنون (بنبوة) محمد (ﷺ) ويطبّقون شريعته، وهم يقولون بأن ربنا يسوع المسيح كان أعظم الأنبياء، ويعتقدون بأن حمله جاء بوساطة روح القدس، وأنه ولد من العذراء مريم، غير أنهم ينكرون بأنه قد تآلم ودفن، بل اختاروا أن يقولوا بأنه صعد إلى السماء، وأنه يجلس على يمين الأب، لأنهم يعترفون به أنه ابن الرب (كذا)، وهم أيضاً يقولون بأن محمداً (ﷺ) يجلس على يساره، وهم

غير نظيفين كثيراً، ويتخذون عدداً كبيراً من الزوجات بقدر ما يستطيعون إطعامهن، وهم يمارسون ذنوباً غير طبيعية، ولديهم ماخور في كل مدينة، هذا وهم كرماء جداً ومضيافين، وأدباء ولطفاء.

وإلى جانب هؤلاء هناك السريان، والبلاد كلها مليئة بهؤلاء، وهم مسيحيون، لكنهم على غير وئام مع اللاتين، وهم يلبسون بشكل بائس جداً، وبخلاء لا يقدمون صدقات، وهم يسكنون بين المسلمين، وفي معظم الأحيان كأنهم خدم لهم، ويرتدون من الملابس مثلما يرتدي المسلمون، ويتميزون عنهم فقط بحزام صوفي.

ومثل هذا نجد أن الاغريق مسيحيين، لكنهم هرطقة منشقين، باستثناء أن عدداً كبيراً منهم قد عادوا إلى طاعة الكنيسة إثر المجمع المسكوني الذي عقده مولانا غريغوري العاشر (مجمع ليون ١٢٧٤)، وفي الكنيسة الاغريقية جميع رجال الدين رهبان، وهم رجال ذوي حياة صارمة جداً وأصحاب فضائل رائعة.

والاغريق أتقياء بشكل كبير ومحترمون في غالب الأحيان رجال الكنيسة لديهم ويبجلونهم، ولقد سمعت واحداً من بطاركتهم يقول بحضوري: «إننا على استعداد لأن نعيش تحت طاعة كنيسة روما، وأن نحترمها، لكنني مندهش إزاء ترتيبنا بالدرجات دون أدنى رجال الدين، مثل رؤساء الأساقفة والأساقفة، فبعض رؤساء الأساقفة والأساقفة يريدون مني وأنا بطيريك، أن أقبل أقدامهم، وأن أكون خادماً لهم، الأمر الذي لأجد نفسي متوجب عليها القيام بذلك، وعلى كل حال أنا على استعداد للقيام بهذا مع البابا، لكن ليس مع أي إنسان آخر».

وهناك أيضاً الأرمن والجورجيين، والنساطرة، والنوبيين، واليعاقبة، والكلدانيين، والميديين، والفرس، والإثيوبيين، والمصريين، وشعوب أخرى كثيرة، كلها مسيحية، ويوجد من هؤلاء أعداد لا تحصى، ولكل

منهم بطيريك خاص بهم يطيعونه، وأعلن رجال الكنيسة لديهم أنهم على استعداد للانضمام إلى كنيسة روما عن طواعية، وبين هؤلاء نال النساطرة، واليعاقبة أساءهم من خلال بعض الهراطقة، الذين تقدم وكانوا رؤساءهم، فضلاً عن هذا يوجد في الأرض المقدسة المدينيين، الذين يعرفون في هذه الأيام باسم البدو والتركمان، وقد أوقف هؤلاء أنفسهم على رعاية قطعان الماشية والجمال، التي يمتلكون منها أعداداً كبيرة جداً، ولا يمتلك هؤلاء الناس مكاناً دائماً للإقامة، بل حيثما علموا بوجود مراعي يقصدونها وينصبون خيمهم، وهم مقاتلون متفوقون ويجبون الحرب، مع أنهم يستخدمون السيف والرمح في المعركة، ولا يستخدمون النشاب، ويقولون إنها دناءة بلا حدود أن تنتزع حياة إنسان بوساطة سهم، وهم شجعان في الحرب، ويرتدون فقط قميصاً أحمر، وفوقه عباءة فضفاضة، ويغطون رؤوسهم بقطع قماش فقط، وسورية كلها مليئة بهم، لكن أكثرتهم يسكنون من حول نهر الأردن، ومن لبنان حتى قفار فاران، لأنه يوجد هناك جبال للأغنام والماعز، وسهول للقطعان وللجمال، والأغنام في هذه المناطق، ولاسيما الكباش كبيرة جداً، ولهم أذنان ذات حجم كبير إلى حد أن ذيلها واحداً يبلغ من الكبر أنه يحتاج إلى اثنين أو ثلاثة ليستطيعوا أكله.

ومن حول قلعة عرقة، عبر طرابلس، حتى قلعة الحصن، يسكن مسلمون اسمهم الباطنية، ويجاورهم المسلمون الذين يعرفون باسم الحشيشية، الذين يسكنون الجبال القائمة وراء طرطوس على مقربة من قلعة المرقب، وهم يمتلكون عدداً من القلاع والمدن مع أرض خصبة، ويقال إن لديهم أربعين ألف رجل مقاتل، ولديهم مقدم واحد، لايلي منصبه بحق الوراثة، بل بحق الفضائل الشخصية، ويطلق عليه اسم شيخ الجبل، وذلك ليس بسبب سنه، بل بسبب حكمته، ويقال بأن هؤلاء الناس كانوا من أصل فارسي، ولقد مررت خلال جزء من هذه

البلاد، وهم مطيعون إلى درجة الموت، ويقومون بناء على أوامر مقدمهم بقتل أي إنسان مهما كان، ويقولون إنهم بفعلهم ذلك يحصلون على الجنة، حتى وإن قتلوا، قبل أن ينفذوا أوامرهم، ورجبوا قبل عدة سنوات مضت أن يصبحوا مطيعين لكنيسة روما، ومن أجل هذا المقصد أرسلوا سفيراً إلى عكا، الذي حقق بالمباحثات كل ما رغب به، لكنه قتل، وهو على طريق عودته إلى موطنه، من قبل مرافقيه، وكان ذلك قبل دخوله إلى بلاده، مما سبب خسارة للكنيسة ككل، لأن الآخرين عندما رأوا بأن الصليبيين لا يمكن الوثوق بهم، انسحبوا على الفور وتراجعوا، والحدود بين بلاد هؤلاء القوم وبلاد الصليبيين معلومة ببعض الأحجار، محفور عليها من جهة الصليبيين صلبان، وعلى جهة الحشيشية خناجر، ولم يستطع أي واحد من السلاطين حتى الآن إخضاعهم، بل إنهم اتخذوا لأنفسهم شرائع وعادات يتبعونها كما يرغبون، وهم مرعبون بالنسبة إلى جميع الأقوام من حولهم، بسبب حدتهم المتناهية العظيمة.

ولابد أن نعرف الآن مسألة حقيقية، أن بعض الناس الذين يروق لهم الحديث عما لم يروه قط، قد أعلنوا أن الشرق كله الواقع عبر البحر المتوسط وخلفه، وذلك امتداداً حتى الهند وإثيوبيا يعترفون بالمسيح ويبشرون باسمه، وذلك باستثناء المسلمين فقط، وبعض التركمان الذين يسكنون في كبدوكيا، وبناء عليه أعلن بكل تأكيد، حسبما رأيت أنا شخصياً، وسمعت من آخرين يعرفون، إنه يوجد دوماً مسيحيين في كل مكان ومملكة إلى جانب مصر والعربية، حيث يسكن المسلمون والأتباع الآخرون لمحمد (ﷺ) بشكل رئيسي، ولسوف تجد ثلاثين مسيحياً مقابل مسلم واحد، لكن الحقيقة هي أن جميع المسيحيين وراء البحر هم مشاركة من حيث الأمم، وصحيح أنهم مسيحيين، غير أنهم بوضعهم الحالي غير معتادين كثيراً على استخدام السلاح، وعندما يهاجمون من

قبل المسلمين، أو الأتراك، أو أي شعب آخر مهما كان، يستسلمون لهم، ويشترون السلام ويدفعون الجزية بكل هدوء، ويعين المسلمون والسادة الآخرون نوابهم عليهم، ويجمعون منهم الضرائب، ولهذا راج بين الناس وقيل بأن ممالكهم عائدة إلى المسلمين، مع أن الحقيقة الواقعية هي أن جميع الناس مسيحيين، باستثناء هؤلاء النواب وجباة الضرائب وأسرهم، فهذا مارأيته بنفسه في كليزيا، وفي أرمينيا الصغرى، اللتان الآن تحت حكم التتار، فلقد عشت مدة ثلاثة أسابيع في قصر ملك أرمينيا وكليزيا، وقد كان في بلاطه عدد ضئيل من التتار لكن بقية حاشيته وأهل بيته من المسيحيين، ويصل عدد هؤلاء حتى قرابة المائتين، فلقد اعتدت على رؤيتهم مراراً في الكنيسة، يستمعون إلى القداسات، ويبحثون على ركبهم، ويصلون بتقوى، فضلاً عن هذا، كان كلما رأي واحد منهم ومعى مرافقي كان يبدي نحوي احتراماً عظيماً بنزع قبعته والانحناء باحترام لنا، والتسليم، والقيام باحترام لنا لدى اقترابنا، كما أن كثيراً منهم يخافون عندما يعلمون أنه في البلدان فيما وراء البحار، يسكن النساطرة، واليعاقبة، والموارنة، والجورجين، وطوائف أخرى نالت تسمياتها من هراطقة أدانتهم الكنيسة، ولهذا السبب من المعتقد أن هؤلاء الناس هم هراطقة، ويتبعون آثام الذين نالوا تسمياتهم منهم، وليس هذا صحيحاً بأي شكل من الأشكال، والرب يجرمه: ذلك أنهم أناس بسطاء، أتقياء في حياتهم، مع أنني لأنكر وجود حمقى كثير بينهم، راثياً أنه حتى كنيسة روما نفسها ليست خلوة من الحمقى، ولنعلم أن جميع الشعوب المتقدمة الذكر، وشعوب أخرى كثيرة، يحتاج أمر الكتابة عنهم إلى وقت طويل، لهم رؤساء أساقفة، وأساقفة، ورعاة ديرة، ورجال دين آخرين، مثلما لدينا نحن أنفسنا، ويدعونهم بالأسماء نفسها، وذلك باستثناء النساطرة، الذين يدعى رئيسهم الديني باسم الجاثليق، فهو البابا الخاص بهم، وقد علمت بشكل مؤكد أن سلطان رعويته يمتد عميقاً في الشرق، أكثر من كل أملاك الكنيسة الغربية،

ويدعى بقية رجال الدين لدى هذه الطائفة باسم رؤساء أساقفة، مثلما الحال في تسمية رجال الدين لدينا.

ويطلق على الرئيس الديني للأرمن والجورجيين، اسم الجاثليق، وقد مكثت معه مدة أربعة عشر يوماً، وهو معه عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال دين آخرين، وبالنسبة لمأكله وملبسه وأسلوب حياته، هو مثالي تماماً، فأنا لم أرقط أي إنسان مثله سواء بين رجال الدين أو العلمانيين، وأعلنت بكل صدق، أن جميع ما يرتديه من ملابس هو بتقديري لايساوي أكثر من خمسة دراهم، مع أنه يمتلك قلعة حصينة جداً، وموارد مالية عظيمة، وكان ثرياً أكثر مما يحسبه أي إنسان، وكان يرتدي فروة جلد غنم خشنة حمراء، ومهلهلة وقذرة جداً، ولها كمين واسعين، وارتدى تحتها قميصاً رمادياً، عتيقاً جداً، وقد اهترأ تقريباً، وارتدى فوق هذا وشاحاً أسود، وعباءة رخيصة خشنة، ولقد رأيت ملك أرمينيا وكليزيا مع نبلائه جالساً بتواضع وباحترام عند قدميه، وغالباً ما اصطحب الملك معه أكبر أبنائه سناً، وكان يستمع بكل تقوى لما كان يتفوه به من كلمات الرب، وقد اعتاد هو وجميع رجال الدين لديه على الصوم جميع أيام الصوم الكبير على الخبز والماء، وهكذا فعل الملك وجميع نبلائه، باستثناء يوم عيد البشارة، فوقتها سمح الجاثليق — بحضوري — لنفسه، بأن يأكل السمك وشرب بعض النيذ، واستمعت في ذلك اليوم إلى قداس بحضور الجاثليق نفسه، والملك والملكة، وطقوس تقوية إلى أبعد الحدود: وقد ارتدى كهنتهم وأساقفتهم ملابس أردية مثلنا، وقد استخدموا في قداسهم خبزاً غير مخمر (فطير) وأنشدوا في القداس الرسائل، والأنجيل، والمقدمات، والـ Sanctus ، و Pater Noster و Ag-nus Dei ، وذلك بالكلمات نفسها كما نفعول، إنما بلغاتهم وحروفهم، لأنهم يمتلكون لغة خاصة بهم مع أبجدية أيضاً خاصة بهم، والجاثليق

وجميع رجال الدين الآخرين من ذوي المراتب هم رهبان، وفي جميع بلاد الشرق ما من أحد من أي أمة يمكن أن يكون رجل دين له مرتبته ما لم يكن راهباً، وجميع الرهبان يحظون باحترام كبير وتشريف، وليس للقسس والكهنة أية سلطات، وما من أحد يوليهم أدنى تقدير، وليس لديهم من واجبات سوى أداء بعض الخدمات اللاهوتية، فهم يذهبون إلى مرور جميع الساعات الرسمية بالقرع على لوح أو قطعة من الخشب، لأنه لا يوجد لديهم نواقيس، وعندما ترسل إشارة حلول الليل، يمضون إلى الدعوة إلى الصلاة الليلية، ويفعلون ذلك لدى مرورهم بالطرقات، وينبهون الناس إلى ذلك، وبعد انقضاء الصلاة الليلية، لا يذهبون إلى النوم ثانية، بل يجلسون في الكنيسة ويعلمون الناس حتى الفجر، عندما يرتلون القديس الأول، أو حتى الساعة الثالثة، إذا كان اليوم يوم عيد، وليس لديهم سلطات ومسؤوليات غير هذه، باستثناء ما يعهد به إليهم من قبل الراهبات، وجميع الكهنة متزوجون، وما من أحد يسمح له بقيادة قداس أو عمل تعبدي آخر، ما لم يكن متزوجاً، ولا يقيمون قداسات في يوم الاثنين، ولا بعد ذلك حتى يوم الجمعة، ويشمل ذلك أيام الأعياد التي تحل في هذه الأيام مهما كانت عظيمة، ولهم الحرية وقتها بالتحادث مع زوجاتهم، إنما في يومي السبت والأحد فيقيمون قداسات بشكل مهيب، وبعد وفاة زوجة أحد الكهنة، عليه أن يكون قانعاً، وأن لا يتزوج زوجة ثانية، وإذا ما اقترف إثم الفسوق أو الزنا، لا بد له من فقدان كنيسته ومنصبه، ولا يمكن تقديم أي تعويض أو غفران لصالحه، وإذا ما اقترفت زوجة الكاهن جريمة الزنا، عليه أن يقنع بذلك، أو أن يفقد منصبه وكنيسته، ولا بد أن تفقد زوجته أنفها، وأن يخصى عشيقها، حتى وإن كان رجلاً متزوجاً، وقد نفذ هذا وفعل بحضوره، وعندما يموت أحد الكهنة، على زوجته أن تقنع وتعيش حياة عفة، إنما إذا ما تزوجت ثانية، فينبغي إحراقها وهي حية، لكن إذا ما أصبحت بغية، فما من أذى يمكن أنزاله بها، ولديهم الآن ميثاق

جديد فيما بينهم يقضي بأن يحصل الكاهن — مثل أحد الرسل — على زوجة عذراء، ويتميز الكهنة الأرمن والجورجيين عن العلمانيين بوضع قطعة من الكتان الأبيض يلفونها حول رقابهم وأكتافهم.

وبالنسبة إلى اللصوص الذين يدانون باقتراف سرقات صغيرة، أو باقتراف أعمال شريرة أخرى، أو جرائم أدنى نوعاً، فإنهم يتعرضون للخصي، لكي لا ينجبوا أولاداً يقلدون آباءهم في اقتراف الآثام، وهذا هو السبب بالنسبة لي الذي يعلل وجود هذا العدد الهائل من البغايا هناك، لأنه يوجد عدد كبير من الخصيان، وكلهم يعمل في خدمة سيدات نبيلات، وأعتقد أن ملكة أرمينيا كان لديها أكثر من أربعين خصياً، عندما كنت في قصرها، وما من إنسان يتولى زيارتها إلا بإذن خاص من الملك، ويقوم الملك بتسمية واحداً من الخصيان ويعينه لمرافقته ومراقبته، وهذه هي العادة بالنسبة إلى جميع السيدات النبيلات سواء المتزوجات منهن أو الأرامل.

ولدى جميع الملوك والأمراء والنبلاء رغبة عارمة بالاستماع إلى كلمة الرب، ولهذا اسبب يذهب كل يوم بعض الحكماء أو الرهبان في الساعة الثالثة إلى البلاط، أي بلاط كل ملك أو أمير، ويأتي الأمراء أو السادة مباشرة إليهم شخصياً مع أولادهم والأعيان لديهم، ويتم جلب بعض أسفار الكتابات المقدسة، حيث تقرأ بحضورهم باللغة الدارجة، لأنهم لا يعرفون لغة أخرى، أو يتولى الرهبان شرح النص عليهم، وكلما شعر العلمانيون بوجود شك ما أو يقومون بطرح سؤال، يقوم الرهبان بإيضاح الأمور لهم وتوجيههم وفقاً لكلمات القديسين، وقد سألت هؤلاء الرهبان عن أسماء الشخصيات المرجعية، التي يتبعونها، وقد أجابوني بأن مراجعهم الرئيسية المعتمدة هم: جون خريستوم، وغريغوري الناصري، وسيريل الاسكندري، وكل من رجال الدين والعلمانيين أتقياء جداً في الكنيسة، ولا يفعلون هناك شيئاً سوى الصلاة

أو الانشاد، أو أي شيء آخر عليهم أن يعملوه هناك، ولم أشهد هناك قط إنساناً يضحك أو يتصرف شخصياً بشكل غير لائق في الكنيسة.

ويتم أداء القداس في كنيستهم بشكل تقوي، ويوضع الكأس على الجهة اليسرى من المذبح في مكان أعد خصيصاً له في الجدار، ولدى صلاة التقدمة يرفعها الخوري، المرتدي لثياب حريرية ثمينة، بكل احترام فوق رأسه، ويكون هناك معه شماس يحمل مبخرة، كما يكون هناك قندلفتين يحملان الشموع ويسيران أمامه، ويدورون حول خلف المذبح وذلك باتجاه الطرف اليمين منه، ويعد هذا يأخذها الأسقف بكل احترام ويقدمها، وذلك مثلما يفعل الكهنة لدينا، ويقف إثنان بشموع مضاءة خلف الكاهن أثناء قراءة قانون القداس، وإلى جانبها اثنان بمباخر، وهما يرتديان ثوبان كهنوتيان طويلان، ويقف شماسان على طرفي اليمين واليسار للمذبح، ويصليان بتقوى وقد ضم كل منهما يديه واتجه بوجهه نحو جسد المسيح، وهو يغني بصوت شجي وتقي مؤثر ويردد ما يغنيه مع الآخر، وفي الحقيقة إنه لأمر هو الأكثر تقوى وقداسة أن تشاهده وتسمعه.

ولقد رأيت كثيراً من الممارسات العامة الرائجة كثيراً في تلك البلاد، بين العلمانيين، وبين رجال الدين، والرهبان، التي من النادر الأخذ بها أو ممارستها في بلادنا.

ولقد سافرت عبر هذه البلاد كلها حتى كبدوكيا وسلوقيا، وكان ذلك بوساطة البحر، وأبحرت من هناك إلى قبرص، وتجولت عبر الجزء الأعظم من تلك المنطقة، ومن هناك أبحرت إلى سورية، وقدمت إلى صور، وبعد مضي عدة أيام أبحرت من هناك على طول ساحل فلسطين، ومررت بحيفا، وجبل الكرمل، ودورا، وقيسارية فلسطين، وأنتباتر، ويافا، وعكرون، وأشدود، وعسقلان، وغزة، وجميع الصحراء الرملية حتى مصبات نهر النيل، ومن هناك مضيت إلى دمياط، التي كان

اسمها القديم ممفيس، وهذه هي بلاد جوشن Goshen ، حيث أقام
بنو إسرائيل في القديم، وخدموا الفرعون في عمل الملاط
واللبن [الخروج: ١ / ١٤]، وفي هذه البلاد جرى فيما بعد رجم إرميا.
مبارك هو الرب، والقديس متى، آمين.